احمـد السطاتي

نحو ثقافه ثورية

ان الوضعية الثورية هي قدر بلادنا الذى لا مناص منه ، وهى قدر كل البلاد المتخلفة التى تعيش أوضاعا شبيهة بأوضاعنا ، ذلك أن القضاء على التخلف ، علميا وعمليا ، لا يتاتى الا عن طريق الحل الثورى ، فالنزعات الاصلاحية ودعـاوى السـيـر الحثيـث والتقدم التدريجى البطىء مغالط ترمى الى تثبيت جذور التخلـف وتعميق هوته ، فمن البين أن الشقة التى تفصل البلاد المتخلفـة عن البلاد المتقدمة تزداد اتساعا كلما سارت البلاد المتخلفة فـى سبيل التنمية عبر حلقات الحلول الجزئية المتدرجة ، ذلك ان التقنيات الحديثة التى تطبقها البلاد المصنعـة فى كـل الميادين تمنحها كل يوم معدلات قياسية فى سرعة النمو والتقدم لا مجال لمقارنتها مع معدلات النمو البطىء والمتعثر فى البلاد المتخلفة •

هذا الوقع يثبت ، اذن ، أن البلاد المتخلفة فى حاجة الى حل ثورى ، بل هى مدعوة اليه ومطالبة به اذا أرادت صيانة وجودها كما وكيفا ، فالتخلف ليس فقط مجرد ضعف فى مستوى المعيشة والدخل والمعرفة وما الى ذلك ، وبعبارة أوضح ليس التخلف اليوم مجرد سؤال عن كيفية الوجود • بل هو سؤال يطرح حول حقيقة الوجود (بالمعنى المادى والكمى) ذلك أن التخلف تهديد يواجه الامة فى صميم وجودها ، اما أن تكون او لا تكون ، فالاستمرار فى وضعية التخلف معناه الوقوع فى تبعية محققة واهداء وجودنا للغير ليشكله كيف يشاء أو يطمسه ويمحقه اذا شاء •

واذا كنا نلح على أن الحل الثورى هو السبيل الوحيد الممكن للخروج من التخلف فلأن كثيرا من الاوضاع والمعطيات فى البلاد المتخلفة تنبىء بذلك وتفصح عنه وتدعو اليه ، ولناخذ نموذج بلادنا ، كل المطالب التى يطالب بها المواطن المغربى اليوم تعد ثورية ذلك أن تلبيتها تدعونا شئنا أم ابينا الى احداث تغييرات ثوريـــة فى هياكلنا الاجتماعية والاقتصادية ، ان كل مواطن مغربى اليوم ، يطالب بالتعليم له ولابنائه ، وبالعمل له ولابنائه وبالاستشفاء وكل انواع الرعاية الاجتماعية له ولأبنائه ، ومن المؤكد أن كل هـذه المطالب لا يمكن تحقيقها الا باعادة النظر فى الدخل والموارد وتوزع الثروة الوطنية وتعبئة كل الامكانات اذا كنا حقا نريد أن نحقق مجتمع الكفاية والعدل ، وهذا الحل الثورى لا يمكن تاجيله الى الغد او الاستعاضة عنه بحاول أخرى ، فكل تاجيل أو لف لايمكن ان يخلق الا مضاعفات جديدة وخطيرة ، ذلك أن كل البلاد المتخلفة اليوم تعيش وعيا حادا بالحاجات التى تفتقدها ، فلا حاجة الى التاكيد بأن المواصلات الحديثة قلصت الابعاد بين الشعوب ، وجعلت كل مواطن فى البلاد المتخلفة يقف على حقيقة الفوارق التى تفصله عن غيره من مواطنى البلاد المتقدمة فى كل مجال ، ولذلك فهو يشعـــر بمرارة الحرمان وسيظل يطالب ، ومن حقه أن يطالب بتحقيق كل الحاجات التى يفتقدها وتتوفر لغيره من الناس •

لكن الذى ينبغى ان ننبه اليه هنا ، هو أن هذا الوعى الحاد والثورى أيضا الذى يتجلى فى مستوى الحاجة لا يواكبه مع الاسف وعى ثورى فى مستوى التفكير والعقلية ، أو بالاحرى وعى ثورى فى مستوى الثقافة • ان مطالبنا وحاجاتنا التى نطمح الى تحقيقها ستظل مجرد أحلام اذا لم تصاحب بعمل ثورى وبعقلية ثورية فى وقت واحد ، فاذا كان السبيل الوحيد لحل مشاكل التخلف هـــو السبيل الاشتراكى ، فان هذا الحل لا يمكن أن يضطلع به الا الافراد ذوو عقلية اشتراكية وتفكير اشتراكى ، ان احداث اى تغيير ثورى

فى بنيات المجتمع لا يمكن أن يتحقق الا باحداث تغيير فى العقلية واساليب التفكير ، واذ ذاك يمكن للمغير والمتغير أن يدخلا معا فى علاقة جدلية تغتنى فيها الممارسة بالفكر ويغتنى فيها الفكر بالممارسة. وهذه هى الثقافة الثورية التى نحن اليوم فى أمس الحاجة اليها •

ان الثقافة ، أية ثقافة ، مهما تكن الصفة التى تحمل اليها او النعت الذى يضاف لها هى نشاط عقلى واع متجه صوب الواقع. أو بعبارة أخرى هى حوار بين الفكر والواقع ، فالعقل بدون واقع وبدون تجربة محسوسة عبارة عن أطر وقوالب فارغة ، والواقع بدون عقل متسير وبدون فعالية فكرية تجلو غوامضه عبارة عن سديم لا معنى له • أجل قد يتعثر الحوار بين الفكر والواقع وقد يتوقف ، وقد يعجز الفكر عن فهم الواقع ومسايرته والتأثير فيه ، وهنا تحدث ازمة فى الثقافة ، أية ثقافة ، اذيجوز لنا أن ننعتها بالعقم او التحجر أو التصلب أو الرجعية وما الى ذلك ، ولكى لا تنقلب الثقافة الى مجرد تراث جامد وقوالب فكرية متحجرة ينبغى لنا ان نعتبر عنصر الحركة والثورية جزء لا يتجزأ من مضمونها ، فالثقافة حوار مستمر لا ينقطع بين الفكر والواقع ، والمثقف الحقيقى هو الذى يشعر دوما بتوتر حى وحار يدعوه الى التوفيق بين قدرته ومعرفته ، والى الملاءمة بين فكره وعمله • وان المرحلة التاريخية التى نجتازها اليوم فى بلادنا تطرح على المثقفين مهمات واشكالا لابد من الاضطلاع بها ومواجهتها اذا كانوا حقا يريدون أن يحملوا لقب مثقف بجدارة واستحقاق • ان الازمة الحقيقية التى نعانيها اليوم والتى نتحسسها فى ضمائرنا هى أن هناك انفصاما وطلاقا بين قدرتنا ومعرفتنا ، بين عمل لا تنيره أية معرفة وبين معرفة لا تتجسد فى اى عمل ولا تصلح نبراسا لأية ممارسة مؤثرة وعميقة ، وكثيرة هى المواقف التى لا نعرف فيها ما نعمل او نعمل فيها ما لا نعرف ، وحسبنا دليلا على ذلك أن كلامنا يشعر فى كثير من الاحيان بأن الواقع الذى يعيشه والذى لا يرضى عنه ويرغب فى تغييره ـ يستمد

وجوده واستمراره ـ بقطع النظر عن الظروف الامبريالية والرجعية التي توفر له الحماية المادية ـ يستمد وجوده واستمراره أيضا بفضل الممارسة العفوية والمنظمة التي اقوم بها يوميا ، فاثر مبادراتي الفردية في تغيير هذا الواقع ضئيل فكثيره هي الاحداث التي تفرضها نفسها علي ، وكثيرة هي المعارك التي الزم بخوضها ، وكثيرة هي الواجهات التي اجد نفسي مقحما فيها دون اختيار لا في التوقيت ولا في المناسبة ولا في الاستشارة ولا يقتصر دوري في الغالب الا في تصعيد شحنات انفعالية تتفجر في طاقات عفوية مبعثرة ٠ انها « آلينة » فظيعة وغربة قاتلة أن يجد المرء نفسه يمارس سلوكا لا يرضى عنه في واقع يرفضه جملة وتفصيلا ، وانها لآلينة فظيعة وغربة قاتلة أيضا أن يجد المرء نفسه لا يمتلك معرفة صحيحة تنير له طريق الممارسة الصحيحة ، ذلك أن جملة المعارف التي تلقيناها بواسطة المدرسة أو الاسرة او مختلف المؤسسات الاجتماعية التي تكتنفنا معرفة عاجزة عن اداء دورها في عملية التغيير التي ننشدها ونتطلع اليها ، فهي لا تسلط الضوء على الواقع الذي نحياه ولاتمنحنا القدرة على تحليله واستجلاء خصائصه ، والامر بسيط ، فكل الزاد من المعرفة الذي أحمله يعكس اوضاعا اجتماعية واقتصادية يراد لها ان تستمر وان تترسخ ويشكل غطاء تبريريا فوقيا لوضعية لابد أن تسود وتريد الا يذكر اسمها صراحة ولذلك فهي تتزيى تحت اقنعة مختلفة فنية وتربوية واخلاقية وما شاكل ٠

ان الثقافة الثورية الحقة هي التي ينبغي أن تضطلع بحل هذا التناقض وتجاوزه ، هذا التناقض الذي يتجلى في معرفة لا تستعمل ، وممارسة لا تستند الى معرفة صحيحة ، نحن مثقفون بمعنى ما ، عندما نتصدى للواقع الذي نعيشه نفحصه ونمتحنه ونسائل انفسنا الى أي حد استطاع هذا الواقع المعاش أن يسمو بنا وأن يحقق للانسان المغربي انسانيته ويثبت جدارته ؟ ما هي العناصر الموضوعية والذاتية التي تعوق نمونا وتعطل طاقاتنا

الابداعية • ونحن مثقفون ثوريون بمعنى آخر عندما نحاول أن نفكر وندبر ونعد الخطط لتغيير هذا الواقع واعداد الصيغ التي ينبغي أن تقوم على انقاضه وتحقق المجتمع الذى يتحرر فيه الفرد من كـــل المعوقات التي تحد من عطائه •

ولرب معترض يعترض علينا ، كما هو وارد في اكثر من مناسبة ، بأن ما يحتاج اليه مجتمع مثل مجتمعنا هو ثورة تقنية وحجتهم في ذلك أن أرواء الحاجات الملحة والمتزايدة لا يتأتى الا عن طريق الزيادة في عدد التقنيين والاختصاصيين ، بل ان وضع مقاليد الامور بين ايدى هؤلاء يضمن للبلاد المتخلفة فعالية اكثر اذ كثيرا ما تضيع مصالح الامم فى مهاترات أناس يملكـون مـن التكويـن الفكرى والايديولوجي مالا يملكونه من التكوين التقنى • والواقع أن في هذا الدعوى التباسا ينبغي رفعه والتنبيه اليه • فلا جدال في فعالية التقنية وضرورتها والاخذ بها ، ولكننا نعتقد بأن المسألــة الاولى التي ينبغي أن توضع فى الاعتبار هى : التقنية لصالح من ؟ وفي يد من ؟ فالتقنية مجرد وسيلة يمكن أن تسخر فى تحقيق اغراض وغايات واختيارات مختلفة ومتباينة • هل نجند التقنيين لخدمة اختيارات شعبية تقدمية ام لخدمة اختيارات رجعية امبريالية ان التقنية تستطيع ان تعطى أكبر مردود فى كلا الحالين ، لكن تبقى المسألة لصالح من هذا المردود ، وفى يد من ، ولذلك فان رجــل التقنية يجد نفسه حتما فى صف المثقفين الثوريين عندما يناضل يعرف كيف يضع خبرته وتقنيته فى خدمة الاختيارات الشعبيـة التي تحقق الرخاء للجماهير كلها لا لطبقة محظوظة أو فئة مستغلـة (بالكســر) •

ولا استطيع الآن أن أتنبأ بكل النتائج ولا أن أحدد كل الآفاق التي يمكن أن تتمخض عنها الممارسة اليومية لثقافة ثورية بالمعنى الذى المعت اليه ذلك أن كل مبادرة فى هذا الدرب وكل تجربة فى

هذا المضمار كفيلة بأن تحقق من العطاء الفني ما لاسبيل الى حصره وتحديده ، ولكن يبدو مع ذلك بأنه بالامكان أن نساهم في تحديد بعض القيم التي ينبغي على كل ثقافة ثورية الا تتخلى عنها :

ـ الالتحام بالجماهير : فكل تغيير ثورى نطمح اليه لا يمكن أن يجد تبريره ويكتسب مشروعيته الا اذا كان موجها الى الجماهير لتحقيق رخائها ورغدها ، ولذلك فان الجماهير صاحبة المصلحة الاولى في التغيير ينبغي أن تكون هي أداة التغيير ومن حقها أن تكون كذلك • وكل عملية تغيير يستغنى فيها عن الجماهير كوسيلة أو كغاية ، هي عملية مزيفة ومعزولة ومحكوم عليها بالفشل •

ـ المسؤولية : فالثقافة الثورية مسؤولية وبالتالى فهي التزام، التزام لا يمكن ان يتحقق الا في اطار النظام والتنظيم والتعبئة الجماعية وفق خطة مدروسة تتضح فيها الاهداف القريبة والبعيدة، اما العمل الفردى فهو عمل غير ملتزم وبالتالى فهو تهرب من المسؤولية •

ـ العلم : فلا يمكن لمثقف ثورى أن يتخلى عن الروح العلمية في تحليله للمشاكل والوقائع وتقديره للامور والا لكان عمله عشوائيا • ان احداث اى تغيير في الواقع الطبيعي او البشرى لايمكن ان يتم الا عن طريق معرفة منهجية منظمة ، وان اشاعة الفكر العلمى بين الجماهير هو الضمانة والسد المنيع اللذان يحولان دون ترويج خرافات الرجعية وضلالاتها واباطيلها •

ـ الفكر الاشتراكي : اذ لا يمكن لاى مثقف ثورى ان يقبل الاستغلال أو يسكت عنه ولا يمكن لهذا الاستغلال أن يزول عن طريق الاحسان او الرأفة او الاصلاحات الجزئية ، وانما يستأصل عن طريق حل اشتراكي يلغى استغلال الانسان للانسان ، فاما أن نكون مجتمع احرار ، او مجتمع سادة وعبيد •

ـ الفكر القومي والانساني : ان النضال الانساني لا يمكن ان يمر الا عن طريق النضال القومي اليومي ، وان المثقف الذي يحاول أن يتخلى عن كفاح شعبه اليومي بدعوى الانشغال بمشاكل الانسان ككل وبدعوى النظرة الشمولية وما الى ذلك انما يغالط نفسه ويغالط غيره ، فالذي يريد أن يحل مشكلات الانسانية لابد أن يبدأ الحل من طريقه المنطقي الحقيقي وهو حل المشكلات الانسانية التي يعيشها مجتمعه فبذلك وحده يمكن أن يسهم في حل المشكلات الانسانية • ان محاربة الاستعمار هنا تعني محاربته في كل مكان ، وان ارادة التواصل مع الطبقات المضطهدة في شعبنا تجعلنا نلتقي حتما مع المضطهدين في كل انحاء العالم ، ونحن حينما نعمل على رفع الظلم والاضطهاد عن ابناء شعبنا ونريد أن تمحو الاستغلال في هذه الارض فاننا نعمل في حقيقة الامر وبالفعل على تحقيق قيمة انسانية شاملة هي الكرامة الانسانية •

ـ الحرية : فالمثقف الثوري هو اكثر الناس حرصا على التشبث بالحرية باعتبارها أعلى قيمة يتمتع بها الكائن الانساني ولا ينبغي غصبها منه تحت أي شكل من الاشكال ، والمثقف الثوري مهما بلغ ايمانه بعدالة قضيته لا يمكنه أن يلجأ الى العنف غير المشروع في تحقيقها ان الانظمة الفاشستية والرجعية هي وحدها التي تخشى الحرية وتهابها وتلجأ الى العنف كلما احسست بأن قضية الجماهير ارتفعت الى الوعي الكاسح الذي يهدد مصالح طائفة محدودة من الانتفاعيين • ولذلك فالمثقف الثوري يرفض هذا العنف ويقاومه ليعلي راية الحرية التي يعتبرها الشرط الحقيقي لانتصار الحقيقة والعدالة ، ذلك أنها تفسح للفكر أن ينطلق اعتمادا على طاقته الذاتية واشعاعه المنطقي •

الرباط ـ احمد السطاتي

احمد المجاطي

قراءة في مرآة النهر المتجمد

يحمل في غثائه الاشجار
والتربة السوداء والموائد
الصمت والقصائد
ودار لقمان واطلالها ، والمدن الاسوار
حتى اذا أتى رحاب المشور البعيده
ألقى نثار الغضبة الحمراء
وصار خيط مـاء
يضحك سور القصر في مرآته العنيده
لكنني أخرج من سوالف الاوتاد
أمازج الاعشاب والاسماك والطوبا
ادق باب السجن في مراكش ، أفلت من محفظة الجلاد

ارسم فوق جبهة السلط
علامة الثورة ، ثم انثني دؤوبا
اغوص في قرارة الامواج مصلوبا
اغوص لا ارى سوى احذية الفرسان
وصدأ الحديد في اسلحة الميدان
كأن ذاك الاطلس العاشق حين رقرق الماء
بكى دما ، وشق في الصحراء صحراء

— * —

وها أنا على مدار الطحلب الغافي
انسج من سمتي ومن نعتي واوصافي
خط مداد ، مطرا جائع
لافتة تسير في الشارع
فيالفلول الزمن الضائع
دمي على مصارع الابطال نواره
رسم على معصم ، عروة اسواره
سلافة تخرج من اقبائها القديمه
وها أنا على مدار النصر والهزيمه
اسأل حد السيف سور القصر ، ماء النهر
راس الوطن المقطوع
لون العلم المرفوع

اسال صمك البيعة الشمطاء من اوقعها
في قبضة الاطفال ، من ينقذها
من ولع الاطفال باللعنة والشتيمة

— * —

كبرت الحروف في المرآة
كبرت يانهر ، نمت من حولك الاغصـان
وخرجت احجارك السوداء من اسمائها
وخـرج الزمـان
فمن يقول أن هذا السور
هـو القيـد
هـذا التـاج
لا تخرج من اسمائها ندى وصهبـاء
ومن يقول ان هذا الاطلس العاشـق
حين رقـرق المـاء
بكى دما ، وشق في الصحراء صحراء

فـاس ـ احمد المجاطي

محمــد زنيبــر

مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية

الاصالة من المفاهيم التي جنى عليها سوء الاستعمال وسـوء الفهم ، كما جنت عليها الدعايـات الاستعماريـة التـي تحـاول أن تستقطبنا لفلكها الثقافي والفكري ، بعد أن تمكنت الى حد الساعة من ربطنا بعجلتها في ميدان الاقتصاد • والامبريالية تعلم أن الاثنين متكاملان : فما دام الفكر ينعم بشيء من الاستقلال ويستطيع ان يثور ويحتج ، ما دامت الهيمنة الاقتصادية ذاتها مهددة في مصالحها ومطامعها • واذن ، فمن المفيد للاستعمار ، بالدرجة الاولى ، أن يوطد التبعية الثقافية في البلاد الفتية ، ويعمل على كبت شخصية الشعوب وتفسيخها ، مستعملا لهاته الغاية أبناء البلاد المعنية ، الذين ينساقون ، عن حسن نية ، في غالب الاحيان ، تحت شعار التقدم والتحرر ، للمناداة بالارتباط الفكري مع ثقافـات الـدول الكبرى ، ونبذ كل ما هو مشخص لقوميتنا الصميمـة ومتصـل بمعطياتنا الملموسة • وهذا ، في الحقيقة ، ما هو الا لون جديد من ألوان سياسة الادماج والابتلاع التي رأيناها تبرز سافرة على مسرح السياسة الاستعمارية اثر الحرب العالمية الثانية في الفترة السابقـة للاستقــلال •

لذلك ، فاني اعتقد ، بكل يقين ، أن الاصالة هي من المفاهيم الوطنية التقدمية ، لانها هي المضمون الحقيقي لشخصيتنا ، وهي الاساس الذي يجعلنا نشعر بوجود كياننا ، وندافع عنه في هذا العالم الذي يتربص فيه القوي للضعيف ويحاول أن يتصيده بشتى الاحابيل والاشراك •

نعم ، هنالك نقد ذاتي واسع وعميق لابد لنا من أن نقوم به في هذه المرحلة الحاسمة من تاريخنا ، لنعرف ما نريد أن نصل اليه في المستقبل • كما انهمن الضروري لنا ان نثور على بعض مخلفات الماضي ، وعلى عدد من التقاليد التي برهنت على قيامها عرقلة في سبيل التطور والتقدم • ولكن ، ما معنى النقد الذاتي ؟ هل يعني أنه يجب أن نمحو شخصيتنا التاريخية بالمرة وأن نستبدل وجهنا الطبيعي بوجه آخر نكون قد رسمنا قسماته وملامحه ؟

ولنقل ، أولا ، ان السير في هذا الاتجاه هو سير نحـــو المستحيل • فلا يوجد شعب على وجه البسيطة استطاع أن يتجرد من شخصيته التاريخية وأن يتقمص شخصية جديدة مستعارة ، مهما تقلب فيه من ثورات جذرية وعرف من حروب ونكبات • فلا زال الشعب الروسي هو الشعب الروسي ، وان تغيـــرت ظروف حياته تغيرا عميقا • ولازال الشعب الصيني هو الشعب الصيني • لقد حاول مصطفى كمال أن يسير في هذا الاتجاه ليجعل مـــن الشعب التركي شعبا أوربيا بعقليته ومظاهره الاجتماعية ، فنبذ الحروف العربية ليستبدلها باللاتينية ، وفرض لبس القبعة بدل الطربوش • ولكن ، هل استطاع في النهاية أن يحول التركي الى أوروبي ؟ ان تطور البلاد التركية برهن على خلاف ذلك •

معنى هذا أن عملية النقد الذاتي يجـــب أن تكـــون عمليـــة متبصرة ، فلا تتناول بالتشريح الا الاجزاء المريضة • واذا اندفعنا اليها بمركب نقص يسيطر سيطرة تامة على عقولنـــا وأفئدتـــنا ، فسيتبين لنا أن كل شيء فينا قبيح ويستحق البتر ، وسنعمى عن كل فضيلة ومزية ، وسنكون كمن يمزق ثيابه في نوبة عصبية ، ويمزق معها الاموال التي في جيبه ويلقي بالكل في آتون النار •

ونحن لو قمنا بنقد ذاتي عميق على ضوء تاريخنا القريب ، ووازنا بين العناصر السلبية والعناصر الايجابية التي افادتنا في كفاحنا الوطني ضد الاستعمار وفي معركة التحرير الاخيرة ، ماذا نجد في أساس الارادة التي تجلت آنذاك عند جماهير شعبنا ؟

نجد أن شعبنا ، وان كان في أغلبيته أميا ، يدرك أن لنا كيانا ماديا ومعنويا لا يمكن أن نفرط فيه ولا يسمح لنا بأن نرضى بالخضوع للاجنبي وأن الكفاح من أجل التحرر واجب مؤكد لا سبيل للتخلي عنـــه •

هذا ما دعاني أن اقول في البداية ان الاصالة مفهوم تقدمي ، لانها ، في الحقيقة ، ما هي الا الصورة المركزة والمتكاملة للشخصية القومية أو هي التعبير الاقوى والأتم عن مضامينها • ولست أجهل أن الكلمة أفسدها سوء الاستعمال المقصود وغير المقصود • فهنالك دعاة الجمود والرجعية الذين يحشرون وراء هذه الكلمة كل ما يحلو لهم من الاشياء التي تتــفق مــع موقفهـــم الايديولوجي ومصالحهم الخاصة • وهنالك من يطلقون الكلمة على الهياكل والبنيات الموروثة بقصد التنويه بها وتبريرها • وهنالك من يتخلونها أساسا لمقاومة كل تجديد ، وكل خطوة الى الامام بدعوى أنها مخالفة للاصالة • ولا أستثني من هذا الاستعراض بعض التقدميين أنفسهم الذيـــن أخلوا بنفس التأويل ، فصاروا يقابلون بين الاصالة والتجديد ، ويعتبرون أن مفهومها يتنافى مع مفهوم التقدم والثورة •

والسبب في كل هذا واضح يتلخص في استعمال اللفظــة ومفهومها في غير محلها اللائق • ويجب أن نعترف أن الاصالة ليست من المفاهيم البسيطة ، بل هي مفهوم معقد يحتاج الى تحليل وتوضيح • واذا كانت المفاهيم البسيطة تتعرض لانحرافات كثيرة

فى التأويل والاستعمال ، فما احرى المفاهيم المعقدة أن تثير الوانا من سوء التفاهم والمناقشات الطويلة •

لقاء الاصالة فى الحياة اليومية

انها معقدة بالنسبة للمفكر الذى يريد أن يحددها تحديدا منطقيا ، دقيقا • ولكن الانسان ، فى الواقع ، يدركها بحدس تلقائى كلما وجد نفسه أمام عمل من الاعمال الاصيلة ويكفى أن نشاهد رد فعله والكلمات التى ينطق بها بداهة لنتأكد من ذلك • فأنا ، مثلا ، استمع الى النغمات الاولى من لحن موسيقى . وما هى الا لحظات معدودة حتى ادرك بأنى أمام موسيقى اسبانية أو روسية أو فى الاوربية الحديثة • وهذا ناتج ، أيضا ، عن بعض السمات والحركات التى أنذرتنى بمصدر تلك الموسيقى • وأنا مثلا أستعرض بعض الصور التى تشخص مآثر تاريخية ، فيتراءى لى فى الحين ما هو داخل فى الهندسة المصرية أو فى الاغريقية أو فى العربية أو فى الاروبية الحديثة • و هذا ناتج ، أيضا ، عن بعض السمات الشكلية التى اعهدها فى طابع الفن الهندسى لدى كل هاته المجموعات البشرية • ويمكن أن نمتد بأمثلتنا الى كل الفنون والآداب والصناعات التقليدية والعادات الاجتماعية وكل ما له صلة بالذات القومية • نعم ، ان هذا الحدس يحتاج الى ممارسة وثقافة، ولكن هذا لا يطعن فى واقعية الاشياء التى يدركها •

يتبين لنا من هذا الاتصال الاول أن الاصالة ليست شيئا محجوبا ومتواريا عن الادراك ، بل هى من المدركات الحاصلة فى الوجدان بصورة تلقائية ومن القيم التى نحتك بها فى التجربة اليومية والعادية • فاذا اردنا الآن أن نحددها ، يلزمنا أن نرتفع من مستوى التجربة المباشرة الى مستوى التحليل العقلى •

وسننطلق فى هذا السبيل من اللغة ذاتها ، لان المعنى اللغوى له أهميته القصوى ، اذا اعتبرنا أن اللغة بوصفها اداة اجتماعية ، تمثل القاسم المشترك بين العقول المختلفة ، وتقدم ، لهذا السبب بالضبط ، من الضمانات ما لا تقدمه الآراء الخاصة • فاللغة عمل انسانية وعصارة اجيال ، وهذا ما لايسوغ تجاهله •

لقد درجنا منذ سنوات على أن نتـرجم الكلمـــة الفرنسيـة Authenticité بكلمة اصالة • فهل هنالك توازن تام فى معنى الكلمتين ؟

اذا رجعنا الى المعاجم الموثوق بها نجد فرقا جوهريا بيـــن الكلمتين • كلمة Authenticité تعنى الصبغة الرسمية والعلنية التى يكتسبها كل عمل من الاعمال ، وتستعمل هكذا فى شأن كل وثيقة أو شهادة أمضاها موظف عمومى • ومن ثم امتد استعمالها للدلالة على كل ما هو موثوق به ولا يتطرق اليه الشك •

نجد فى المقابل كلمة أصالة ترجع الى كلمة أصل التى تدل على النسب البيولوجى أو المصدر المادى للجمادات ، فنقول : «اصل هذا الخزف من الطين » وكلما استجاب الكائن لسماته النسبية ، تقول : أصل أصالة • وفى معنى آخر ، ولكنه قريب ، تدل على الثبوت والرسوخ كقولنا تأصلت الشجرة أى صار لها أصل فى الارض ، وينتقل هذا المعنى الى المجاز ليدل على الجودة فى مثال : اصالة الراى •

فاذا اعدنا الى المعنى الحقيقى ، نجد العرب تقول : جواد أصيل وهى تقصد فى نفس الوقت أن له سمات خلقية وخلقية تميزه وتحدد أصله وأن هاته السمات تلتقى مع الجمال والقوة والمتانة • فاذا ارادوا ان يدلوا على عكس ذلك ، قالوا : هجين او مقرف او

مخضرم أو دعى أو ظنين أو ملصق الخ .. وكلها تشير الى وجود شبهة فى النسب .

كان من الضرورى أن ندخل فى هذه التفاصيل اللغوية لندرك بكل وضوح الفوارق الجوهرية بين كلمة Authenticité وكلمة أصالة . فالاولى تقف بنا عند الاوضاع الاجتماعية ، اذ المجتمع بأنظمته وتشريعاته هو الذى يضفي هذه الصفة على الاشياء ، بينما الثانية تذهب الى ابعد من ذلك فتوغل بنا فى المفاهيم الطبيعية والبيولوجية التى لها حتميتها الخاصة ولا تخضع لارادة الانسان . والاولى ، أيضا ، تقف بنا عند حد الوجود والحقيقة ، دون الاشتمال على أى قيمة اضافية ، فى حين أن الكلمة العربية تضيف الى ذلك قيما جمالية وحيوية لها اعتبارها .

وهذه المقارنة تقودنا الى الاستنتاج التالى : ان الكلمة العربية ادق واشمل فى الدلالة على هذا المفهوم الذى اكتسب اهمية كبرى فى الدراسات الاجتماعية والفلسفية المعاصرة . فهى تدل على ما هو كامن داخل الكائنات ومرتبط بها ارتباطا وجوديا ، وليس مفروضا عليها من الخارج .

فاذا أردنا أن نطبق هاته الكلمة على المجتمع ، وجدنا أنفسنا منساقين ، بالطبع ، الى الارتفاع فوق هذا المعنى البيولوجي السلالي فى مدلوله الضيق ، لنحتفظ بمعنى تماسك الشخصية الجماعية واستجابتها لجملة من المقاييس التى تحددها . وستكون الاصالة آنذاك تدل فى آن واحد على مكاسب محصلة بحكم الوراثة التاريخية وعلى استعدادات كامنة وكفيلة بالخلق والابداع والتقدم . فهى لا تدل على التراث بحكم وكيف ، وانما تدل على المزايا النفسية والعقلية التى استطاعت ان تخلق اشياء اخرى فى المستقبل . والذى يجمع بين هذا الماضى والمستقبل ليس هو التكرار او الترابط العضوى ، وانما هو الاسلوب الذى يعبر عن

الشخصية بنفسه الخاص • وأظن أن توضيح هذه المسائل يجرنا الى تحليل مفهوم الاصالة على ضوء الفكر المعاصر • الا أننا لا نستطيع أن نفهم المشكلة على حقيقتها ما لم نر وضعها الراهن فى التاريخ المعاصر •

الابعاد التاريخية لمفهوم الاصالة

لقد اكتسى مفهوم الاصالة اهمية خاصة مع موجة التحرر وتصفية الاستعمار التى اتسم بها القرن العشرون ومع انتشار مبادىء الديموقراطية وخروجها من النطاق القومى الى النطاق العالمى• وغدا كل شعب يبحث عن مقوماته ومركز ثقله ، ويرمم ما أفسده الاستعمار فى مجالات الحياة القومية • واذا كان مفهوم الاصالة يرافق بالضرورة ، كل ميادين النشاط الاجتماعى ، فان المشكلة المتصلة به وضعت ، بحدة خاصة ، فى ميدان الثقافة •

ماذا يعنى التحرر من الاستعمار بالنسبة لتلك الشعوب ؟ هل يعنى العودة الى حالة ما قبل الاستعمار ، لا أقل ولا أكثر ؟ ولكن تلك الفترة هى المسؤولة عن التخاذل والضعف والغفلة التى أدت الى الاستعمار • واذن ، هنالك أمراض ذاتية كيانية ، وأخرى نشأت مع الاستعمار وبقيت بعد زواله • والتحرر الحقيقى يجب أن يعمل فى هذين الواجهتين • وهنا تظهر الاهمية الاولية للنشاط الفكرى ، على اختلاف أنواعه ، أى للثقافة • فالوضع الجديد يقتضى رؤيا جديدة وجريئة أى ثورة شاملة فى التصور والنظر ، اذ هى تمس فى آن واحد بما نتعلق به من حيث العاطفة ، وما درجنا على التسليم به كمبادىء فى التفكير والتعقل • فهى ثورة تمس بالقيم ، وبمناهج المعرفة ، وأساليب التعبير والتبليغ •

ولكن الثورة الحقيقية لا ترتجل ، ولا تستعار ، ولا تباع كبضاعة جاهزة فى السوق • انها ثمرة مجهودات فكرية صادقة ،

ودراسات جدية لاوضاع المجتمع ، على اختلافها وتشعبها • ولا يكفي أن نقول ان امامنا تجارب الشعوب الاخرى نستقي منها حكمتنا وفلسفتنا • فالحكمة والفلسفة سنستقيهما من شعبنا ذاته اذا أطلعنا على أحواله ، وعرفنا نفسيته ، وفهمنا مقوماته التاريخية الثابتة • وآفة التسرع والبحث عن الحلول السهلة هو الانسياق السطحي وراء النظريات المعروضة ، دون التعمق في دراستها ، والجلوس في كرسي التلميذ الذي يتلقف ما يقوله الاستاذ كفقه مسلم ، فلا يفكر في مناقشته والاعتراض عليه •

ومن نتائج هذه التسرعات ما نشاهده اليوم في عالمنا العربي من ضآلة العطاء الفكري • اننا نبحث ، اليوم ، عن المفكر العربي الذي ينزل في احدى القمم العالية ، فلا نجده • فمنذ أن دوت صيحات جمال الدين الافغاني والكواكبي في مستهل الانبعاث العربي المعاصر ، لم نعد نسمع أي شيء • نعم ، هنالك أسماء كثيرة ومحترمة ، ولكن ، ما وراءها ؟ انها ، في الغالب ، تجتر ما اطلعت عليه عند الغربيين وتقدمه لنا في لغة عربية تتفاوت جودة ونصاعة • لذلك ، فان الاوربيين لا يكلفون ، اليوم ، أنفسهم عناء البحث عن الفكر العربي المعاصر لانهم لايتوقعون اكتشاف أن شيء غريب عنهم • سيجدون ألوانا من الرومانسية والواقعية والرمزية واللامعقول ، وكل هذا عندهم في صوره الاصيلة ونماذجه الحية • فلابدع اذا رأيناهم يبحثون عن المفكر العربي في الماضي فيوجهون أنظارهم الى ابن خلدون والفارابي وابن رشد والغزالي ، لان هؤلاء ينطلقون ، على الاقل ، من ذات قوية وقرار مكين ويجتهدون في عملهم بكل اخلاص ويبرهنون عن استقلال حقيقي ويقدمون ما عندهم في أسلوب طريف وأصيل •

فالذي ينقص المفكر والكاتب العربي هو هذه الاصالة التي تجعل منه شخصا ناتئا وسط المجموعة ، شخصا يغترف من معدنه

الخاص ويربأ بنفسه أن يظل تلميذا متصاغرا • ولسوء الحظ ، نجح الاستعمار الثقافي في اقناع عدد من عرب الاجيال الحالية أن لا سبيل لهم في مجال التقدم الا بقبول كرسي التلمذة من المهد الى اللحد • وهو ، في الحقيقة يتلاعب بهم اذ هو ، من جهة ، ينصحهم بالتلمذة المتواضعة ، ومن جهة أخرى يسخر من ضحالة عطائهم في الميدان الفكري • وهذا هو السر في كون الثقافة العربية المعاصرة لازالت لم تخرج الى النطاق العالمي ، وظلت قاصرة عن اجتذاب الانظار اليها •

ووراء هاته الظاهرة التي نشاهدها ونعيشها ، وضعية نفسية وتاريخية لابد من تحليلها ولو لماما لادراك خطورتها • فالانبعاث العربي الحالي لم ينطلق من مركز قوة ، وانما من مركز ضعف ، مما جعله ينبني منذ ساعة الميلاد على عقدة نقص ، جعل العرب يشكون في انفسهم باستمرار ويفقدون الجرأة الكافية • ومن جهة أخرى ، تميزت المراحل الاولى من هذا الانبعاث بكونها لم تمس الا طبقة صغيرة من مجموع الشعوب العربية ، بحيث ان الجماهير ظلت ، في الغالب ، بمعزل عن هذا التيار ولم تشارك فيه ولم تمده بتجربتها ولم تؤثر عليه • فالانبعاث ، في الواقع ، كان يجري في مجتمع مغلق يمثل تلك «النخبة» التي استمتعت بالنفوذ والثروة واتصلت بالمدنية الاوربية • فهو مجتمع قلق وغير مستقر لانه ، من جهة ، لا يلتحم مع الشعب في حياة موحدة ومنسجمة ، ولانه غير راض بما عنده ومتشوف الى ما عند الغير ، من جهة اخرى •

وفي مثل هذا الوضع المنزعج لا يمكن للتفكير الاصيل ان يبرز الى الوجود • وانما هي خطوات وجلة ، مترددة تنحو تارة الى القومية الضيقة كالفرعونية وما أشبهها ، وطورا الى القومية العربية بمفهوم عاطفي أورومانسي ، ثم تحتك بكل الايديولوجيات الممكنة من اقطاعية ، ورأسمالية وليبيرالية ، وسلفية ، واشتراكية

والتقائية الخ .. ثم يطفو الماضي بثقله ويحتج بآثاره ، فاذا التراث يعيش مرة ثانية لا ليؤخذ على حقيقته ، وانما ليثير ألوانا من الاوهام والخيالات وليسد ثغرات النقص ويخلق نوعا من الثقة المزيفة .

في هذا المجتمع الذي تراكمت فيه الاشياء وتبعثرت ، من الطبيعي أن يتمزق الضمير العربي وأن يفقد حاسة القيم ويبقى سجين الرؤى الضيقة . فلو كان التفكير العربي ناضجا حيا واثقا بنفسه لاستطاع أن يصوغ من كل هذه العناصر المتمايزة تركيبا جديدا تشده الوحدة والانسجام ، ولامكنه أن يتجنب كثيرا من الفورات العابرة والفارغة .

فالاصالة ، من هذه الوجهة التاريخية النفسية ، تظهر لنا كعودة الى أصول الاشياء وحقيقتها لنعرف كيف يكون البناء ، وكيف يمكن التأليف بين العناصر القديمة والجديدة ، وكيف يمكن أن تكون الصورة النهائية بديعة في تكوينها وعاكسة لشخصيتنا . في آن واحد ، وقادرة ، في النهاية ، على أن تجتذب اليها أنظار العالم ، لانها ليست من البضاعة المبتذلة .

ومع ذلك ، فان التردد والتمزق اللذين نشاهدهما في الوضع الحالي لهما جوانبهما الايجابية . فهكذا ، سيبقى الباب مفتوحا للاختيار الحاسم والاتجاه السليم ولن يقع مالا يمكن التراجع فيه . والفضل في كل هذا يرجع الى العقل الباطن عند العرب الذين أبت عليهم حساسيتهم التاريخية أن يقدموا على نوع من التجربة الكمالية في تركيا ، وتوفرت لديهم في كل الاوقات المناسبة ارتكاسات الرفض . ولهذا ، نجد الان كل الحركات التقدمية العربية تدرك أهمية الوضع التاريخي الخاص بالعرب ، وتحاول أن تجد صياغة تركيبية جديدة لهاته المعطيات المختلفة . ولنقرأ ، مثلا ،

ما ورد فى كتاب « دراسات فى المجتمع العربى • » الذى الفه لفيف من الاساتذة التقدميين فى جامعة دمشق :

« لقد أحاطت بالعرب ظروف تاريخية قاسية تعرضوا فيها للغزو والسلب والنهب والاستعمار • وهذه الظروف اخرت سيرهم وتطلعهم الى المثل العليا وجعلت تاريخهم خلال فترة من الزمن مقسما قل فيه النور والاشراق ، بل وصيرتهم أتباعا للدول الاستعمارية • ولكن جذوة الحضارة العربية ، بما فيها من روح حية وحمية مشتعلة ، وفكر متقد ، كانت تعمل عملها بالرغم من الشروط التى ألمت بهم • فما أتيحت لهم الفرصة ثانية على ضوء النهضة الحديثة ، الا واخذوا يجمعون قواهم ، وينظمون صفوفهم للعودة الى البناء الحضارى • ولذا ، فان تاثير الروح الحضارية كان عميقا فى نفوس العرب ، لم تبده الايام ولا تسلط الاستعمار ، لان الذات العربية كانت تتغذى بقيم حضارتها التليدة لتقوم وتبنى قيمها الطريفة مواكبة ركب الحضارة العالمية بما فيها من انتاج وبناء وتقدم وعمران وقيم خالدة تعز الانسان وتحفظ له حريته وكرامته ليعطى أفضل ما عنده من ابداع فى مختلف الميادين • »

هذا نص اخترته لا لأنه يأتى بنظرة جديدة ، وانما لكونه يعبر عن فكرة جماعية تكاد تكون معممة بين سائر المثقفين العرب فى كل البلاد العربية • وعموميته هى التى تكسبه أهمية خاصة بالنسبة للتحليل التاريخى • فهو ، مع اغفاله لبعض المعطيات التاريخية المهمة ، يحاول أن يبرز أن النهضة العربية الحالية هى استمرار تاريخى لفكرة حضارية وجدت عند العرب منذ القديم • وهذا ينفى أن الارادة التى رافقت ميلاد هذا المشروع الكبير وتنفيذه مقتبسة عن أوروبا ، بل هى ارادة ترتكز على نزعة تاريخية قومية • أليس هناك ، اذن ، دور لأوربا ؟ بلى • ولكنه دور ينحصر فى الاحتكاك الموقظ • ان التصادم مع أوربا القوية المتقدمة أثار الوعى

العربي من مكامنه الظليلة ، فخرج يتلمس طريقه بعد نوم القرون ، كاهل الكهف • ويبين النص ، من جهة ثانية ، أن هذه الروح الحضارية المتأصلة عند العرب متفتحة ، اذ هي قابلة لاحتضان كل مقتضيات التقدم المعاصر بسائر مظاهره ومشتقاته • ونجد مصداقا لذلك في الحضارة الاسلامية عند وثبتها الكبرى ، حيث لم تتردد في الاتصال بالحضارات القديمة والمعاصرة واعتبرت الكل تراثا انسانيا مشاعا يجب الاستفادة منه •

هنالك ، اذن ، ارادة جماعية مستقلة ترتكز على خط تاريخي، ووعي متفتح يقظ يتنقل بين الدائرة القومية المغلقة والدائرة العالمية الواسعة • ولكن المهم في كل هذا هو نوع التركيب المزجي بين الذاتية والعالمية ، بين العطاء الشخصي وأثر الاصداء الخارجية • وبقدر ما ينجح ذلك التركيب، تبرز الاصالة في صورتها الصحيحة• ولكن ، هنالك ، من يحاول أن يدخله في صيغة ميكانيكية محكمة ، كأنه يواجه عملية كيماوية • وبالطبع ، فانه لا يحصل عن ذلك الا تشويه للاصالة وتمثيل بها • وهنا لابد من أن نفتح نقاشا مع بعض النظريات التي نادى بها بعض المفكرين ، وكذلك مع بعض الآراء الشائعة والمتناقلة عند عدد من المثقفين •

محمد زنيبر　　　　　　يتبع

وداعايا روسيا القيصرية

يرتجف العالم بين يدى
قطعة لحم مقطوعة ، للتو ،
فى الجزء الشمالى تبقى الاوراق لاصقة بعد موعدها
ينهض التلاميذ باكرا ، مع الطيور ، يذرعون ممرات المدينة •
فى الركن الغربى / يعض جبينته
وتصرخ فى وجه الكلب !..
أحدهم يقيء الصورة الجميلة على جريدة الصباح ،
تداس آنية الحليب فى حظيرة البقر
وأرتجف باكيـــا
قطعة لحم مقطوعة ، للتو !

* — *

تصعد الشمس عاليا
وتملأ خلف الاسوار الشهباء مواقع القتال
تنقطـع الانفاس :
لعبـــة الاوراق !

* — *

وجدته حزينا يرتق الحذاء
احتج أن يسير حافيا ، يوخزه العراء
احتج أن تموت روسيا القيصرية
ـ تموت القضيـة ؟!
ـ فلتمت القضية !
ـ تـفــــو !

* × *

في طريق الجبل
كانت الياسمينة البرية
يقتلـــها البـرد
يرتجف فى أحشائها العصفور الرمادى ،
يشمهـا المسافرون ..
وفى محطات القطر الليلية
تلويت على الاسفلـــت
حلمت بالمدن القصيه ،
مناجم النحاس والحديد / نقابات العمال / الدم فى وجنات الاطفال /
ضحكة (الموناليزه) الصغيرة ، فى مختلف (اللوفر) ..
ودقت احذية الجنود فى المحطات الليليه
تمزقت ضحكة الموناليزه الصغيرة فى ذهنى
تثاءب المتعبـــون

... ...
... ...
... ...
... ...

بصقت احداهن الدم
تلاحقت العربات خارج الحدود

وهناك في بلاد الياسمينة البريه ،
في محطات القطر الليليه
بقية آدمي على الاسفلت (1) .

محمد الشمـرة

(1) لجميع الاحباب ، خارج الوطن .

الدكتور محمد عابد الجابرى

اضواء على مشكل التعليم بالمغرب

1 ـ المشكل بين مظاهره وجوهره :

ثمة فى المغرب الراهن **مشكل مزمن** ، مشكل يحتل الصدارة ضمن مجموعة المشاكل الاخرى التى لم تصرف بعد طريقها نحو المعالجة الجدية والحل الصحيح ·· انه **مشكل التعليم** ، مشكل يعترف بخطورته وتفاقم أبعاده ، منذ الاعلان عن الاستقلال الى اليوم، المغاربة جميعا : آباء وأمهات وابناء ، اساتذة ومعلمين وطلابا وتلاميذ، حاكمين ومحكومين ، مسؤولين وغير مسؤولين ، مختصين فى التربية والتعليم أو غير مختصين ·

قيل الكثير ، كتب الكثير عن هذا المشكل ، وعقدت حوله ندوات رسمية وغير رسمية ، فاقترحت حلول كثيرة متتالية أو متزامنة ، وفى كل مرة كان اللاحق منها يلغى السابق ، او يعدله ، أو يكمله ·· ومع ذلك لم يزدد المشكل الا تعقيدا ، ولم تزدد أبعاده الا امتدادا وتشعبا : الطلاب والتلاميذ يضربون ، ويرفعون الاحتجاجات ، ويقدمون المطالب ·· والمسؤولون يغضون الطرف اولا ثم يتحركون ويقمعون ثانيا ، ثم يتفهمون اخيرا ، فيلبون بعض المطالب ، المطالب التى من الممكن تلبيتها فى الحين ، اما المشاكل الاخرى ، المشاكل التى تتطلب دراسة ووقتا ، فيقال عنها ان الحكومة

عاكفة على ايجاد الحلول لها ·· وهكذا يبقى « المشكل » من غير حل ، ينتظر سنة أخرى لاريب فيها ، لينفجر الوضع من جديد ، ولتقدم المطالب من جديد ، ثم ليعلن عن الحلول الجزئية وحدها ويبقى المشكل قائما كما كان او اكثر ·· وهكذا دواليك !؟

ما هو هذا المشكل اذن ؟ **ما حقيقته وما جوهره** ؟ ما هي الكوامن الخفية التي تحركه من ذاته ، ومن وراء ستار ، ليتمظهر تارة في الاحتجاج على قرار اتخذ ، يضيف جديدا او يحذف قديما ، وتارة أخرى في المطالبة بالغاء جديد وابقاء قديم ، او العكس ··؛ ما هي الابعاد العميقة لهذا المشكل المزمن الذي يطغى على حياتنا الاجتماعية والسياسية فيحركها ويدفع بها نحو هذه الوجهة أو تلك

لقد اتخذ مشكل التعليم في بلادنا ، ومنذ الاعلان عن الاستقلال ، طابعا سياسيا واضحا ، ليس فقط لانه يمس الشعب كله ، أو لانه يقدم أحسن مطية تطرح من على متنها قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية ، بل ايضا لانه يعكس بالفعل اختيارات تخص هذه الميادين نفسها ، ويتضمن في جوفه ، ومن خلال تطوره ، ابعادا سياسية واجتماعية اثرت وتؤثر وستؤثر — لا على الثقافة والتعليم فقط ، بل على مجموع المشاكل الاخرى على اختلاف انواعها ، وتفاوتها في الاهمية والخطورة ·

ان استمرار هذا المشكل ، وتفاقمه واستفحاله ، قد جعل التعليم في المغرب ، بعد سبعة عشر عاما من الاستقلال ، يفشل في مهمته ، ليس فقط لانه لم يستطع خلال هذه المدة الطويلة أن يزود البلاد بما تحتاجه من أطر في الميادين الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، أو على الاقل يخفف بشكل جدي من هذه الحاجيات ، بل لانه كذلك لم يستطع ان يقدم لنفسه ما يحتاجه هو من معلمين واساتذة ·· **ان التعليم في المغرب** ، وبعد سبعة عشر عاما من

الاستقلال ، لم يستطع ان يكفي ذاته بذاته ، ولا ان يسد بنفسه حاجاته ومتطلبات نموه ، على الرغم من الاعانات الاجنبية ، او بسبب من هذه الاعانات نفسها ·· يكفي هذا دليلا ناطقا مفجعا على فشله واخفاقه ··!

ثمة اذن مشكل مزمن في المغرب ، هو بلا نزاع مشكل التعليم ·· والمشاكل ، أيا كان نوعها ، ليست بنت ساعتها ، بل هي نتيجة عملية تطور ونمو : نمو الاجزاء في اطار نمو الكل ، ونمو الكل من خلال نمو الاجزاء ·· معنى ذلك ان المشاكل ، ايا كانت ، لها تاريخ ومن ثمة يغدو الفهم الصحيح لها انما يبدأ بفهم تاريخ مولدها ونشأتها ، وتتبع مراحل نموها وتطورها ·

والحق ان المعطيات الاساسية لهذا المشكل يصعب فهمها ، ان اقتصرنا على النظر اليه من خلال الصور التي يكشف فيها عن نفسه من وقت لآخر ، فلا اضرابات الطلبة ، ولا رد فعل المسؤولين ولا النتائج الهزيلة التي تسفر عنها الامتحانات ، ولا المستوى العام الآخذ في الانخفاض · لاشيء من ذلك يشكل المعطيات الاساسية ، الجوهرية للمشكل · انها مظاهر ، مظاهر مهمة ولاشك ، ولكنها لا تعبر عن المشكل تعبيرا كاملا ، لا تعكس الا جوانب منه ، جوانب جزئية سطحية في غالب الاحوال ·

ان المعطيات الاساسية ، الجوهرية ، التي يعاني منها تعليمنا الآن ، بل بلادنا وشعبنا ، انما نقرؤها ، بوضوح ، من خلال تعرية جدية لجذوره ، وكشف واضح عن الاطار الذي نشأ فيه وبقي يتحرك في حدوده · ولسنا ندعي هنا انه سيكون بامكاننا القيام بهذه المهمة كاملة ، وانما نطمح فقط ، من خلال هذه المحاولة التخطيطية الاولية ، رسم معالم الطريق التي تمكننا من وضع المشكل وضعا صحيحا ، في اطاره الصحيح · واذا ما وفقنا في هذا فاننا

سنجد انفسنا لا امام حلول ممكنة ، بل **امام حل وحيد ٠٠ اما باقي « الحلول » فهي لا تعدو ان تكون مآزق ممكنة ، بل محققة ٠٠** وكم من « حلول » اعتقد فيها المسؤولون « الجدية والفعالية » ، وكانت نتائجها في نهاية المطاف مآزق «جدية» وذات «فعالية» ٠٠!

ما هي اذن الاسس التي قام عليها تعليمنا الحالي ، وما مضمون هذه الاسس ، مضمونها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي؟

ذلك ما سنحاول الكشف عنه من خلال المعطيات التاريخية التاليـة :

2 ـ أسـس ومضاميـن :

نحن نعرف جميعا ان التعليم القائم حاليا في المغرب هو امتداد واستمرار لنوعين رئيسيين من التعليم : **تعليم وطني** ، تقليدي ، أصلي ـ او ما شئت من الاسماء ـ كان قائما قبل الحماية، وحافظ على وجوده ، مضمونا وشكلا ، الى اليوم ٠ وتعليم استعماري اقامته الحماية لابناء المغاربة حافظ هو الآخر على وجوده مضمونا وشكلا الى وقتنا هذا ٠٠ طبعا ، ان هذا لا يعني ان هذين الصنفين قد بقي كل منهما كما كان اول الامر ، دون تغيير او تعديل ، وانما **يعني ان التعديلات او التغييرات التي ادخلت على هذا الصنف او ذاك قد بقيت سطحية تتحرك في اطار الهيكل الاصلي لكل منهما ، في اطار البنية العامة التي نشأ فيها ، ليغدوا معا من جملة عناصرها الاساسية ٠**

وعلى خلاف بعض البلدان العربية الاخرى ، فان المغرب لم يعرف في بداية هذا القرن ولا في اواخر القرن الذي قبله ـ وهي الفترة التي ترعرعت فيها النهضة العربية الحديثة ـ لم يعرف سوى بقايا مفككة ، منحطة الى أقصى الدرجات ، من تعليم عربي اسلامي عرف

ازدهارا كبيرا في القرون الوسطى .. لقد كانت جامعة القرويين و « المدارس » التابعة لها ـ خلال القرن الماضي وبداية هذا القرن ـ مثالا لاقصى ما يمكن ان تصل اليه مؤسسة علمية عتيدة ، من انواع الانحطاط والتخلف : فلم يكن عدد المنتسبين اليها في عهد الحسن الاول (1873 ـ 1894) يتجاوز الف طالب (400 من فاس و 600 من خارجها) (1) وهو عدد سينخفض الى النصف خلال العقد الاول من هذا القرن(2) .

على ان هؤلاء « المنتسبين » سواء كثر عددهم او قل ، لم يكونوا طلابا بمعنى الكلمة . فالافاقيون ، وهم الاغلبية ، كانوا يقضون شبابهم وكهولتهم في بيوتات « المدارس » ـ وهي شبه داخليات ـ قانعين بـ « الخبزة » وبما قد يحسن به اليهم . اما الدراسة فهي اقوال مكرورة معادة باستمرار ، لن يفوتهم منها شيء سواء تغيبوا اليوم او غدا ، او انقطعوا عاما او عامين . لم يكن للزمان حساب يومئذ ، وبالتالي لن يكون للاحصاء اي مدلول او مغزى : فالطلاب هم انفسهم طوال سنوات قد تمتد الى العشرين والثلاثين بل والى الخمسين . ان الشيء الوحيد الذي كان يتغير هو سحناتهم وملامحهم : شبابا فكهولا فشيبا .

لقد كان هذا الجمود القاتل الذي عاشته جامعة القرويين في هذه الفترة ، يعكس بصدق جمود الوضعية العامة في البلاد : فلم تكن القرويين رواقا في جزيرة نائية منعزلة ، بل كانت مؤسسة علمية « تحظى برعاية الدولة » ومراقبتها وتوجيهها ، بل لشدما كان «المخزن» يحرص على الاشراف المباشر عليها : يعين الاساتذة ويعين مواد الدراسة ، والكتب التي يجب استعمالها .. الخ . وكمثال على هذا نشير الى الظهير الذي اصدره المولى محمد بن عبد الله ، (1757 ـ 1790) والذي يحدد بدقة المواد التي يجب دراستها والمواد التي يجب تركها ، والكتب التي ينبغي الاعتماد عليها .. لقد ورد في فصول هذا الظهير قوله :

« ليعلم الواقف على هذه الفصول ، اننا امرنا باتباعها والاقتصار عليها ، ولا يتعداها الى ما سواها ...

« الفصل الثالث فى المدرسين فى مساجد فاس ، فانا نأمرهم الا يدرسوا الا كتاب الله تعالى بتفسيره ، وكتاب دلائل الخيرات في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها ، والبخارى ومسلما من الكتب الصحاح ، ومن الفقه المدونة والبيان والتحصيل ..

« **ومن اراد أن يخوض في علم الكلام والمنطق وعلوم الفلاسفة وكتب غلاة الصوفية ، وكتب القصص ، فليتعاط ذلك فى داره مع اصحابه الذين لايدرون بأنهم لا يدرون . ومن تعاطى ما ذكرنا فى المساجد ونالته عقوبة فلا يلومن الا نفسه** » . ويقول الاستاذ عبد الله كنون الذى اورد نص هذا الظهير : لقد استمر العمل به فى عهد هذا الملك ، لكن ابطله والده ، فرجع ما كان الى ما كان ، ثم عاد المولى عبد الرحمان بن هشام فجدده فى الجملة بمنشور آخر»(3) ومن الواضح هنا ان الاختلاف فى وجهات النظر لدى هؤلاء الملوك انما يخص الكتب التى يجب الاعتماد عليها فى الدراسات الفقهية ، اما العلوم الاخرى من فلسفة وكلام ومنطق .. الخ فقد ظلت ممنوعة محرمـــة .

لقد كانت القرويين اذن تحت الاشراف المباشر للمخزن ، تعكس ايديولوجيته بكل وضوح . كما تعكس فى نفس الوقت الوضعية العامة فى البلاد . واذن فان الجمود الذى اصابها لم يكن فقط من ذاتها ، وانما كان ايضا من ذات الدولة التى كانت تحرص على رعايتها .

ظلت جامعة القرويين على هذه الحال ، على هذا الجمود القاتل ، الى حوالى العشرينيات من هذا القرن ، أى الى الوقت الذى اخذت

فيه فرنسا تخطط لسياستها التعليمية بالمغرب • ولقد كان من بين الاعتبارات الاساسية التى كان المخططون للتعليم الفرنسى فى بلادنا يولونها كامل الاهتمام ، تلك النهضة الوطنية الفكرية والسياسية والاجتماعية التى كانت تجتاح المشرق العربى فى ذلك الوقت • لقد كانوا يعرفون جيدا الآثار السياسية والاجتماعية التى خلقتها فى المشرق حركات الاصلاح التى قام بها رواد النهضة العربية الاسلامية الحديثة من امثال جمال الدين الافغانى ومحمد عبده ، والتى كانت تستنهض همم الشعوب العربية والاسلامية لمقاومة الاستبداد والتدخلال الاستعمارية ، كما كانوا يشعرون ايضا بأصداء هذه النهضة تتردد ـ ولو بشكل خافت ـ فى الاوساط المتعلمة بفاس • ولذلك وجدوا انفسهم ، بصدد القرويين ، امام اختيارين لا ثالث لهما :

ـ اما ترك هذه الجامعة تلفظ انفاسها الاخيرة ، وفى هذه الحالة سيتجه ابناء المغاربة الراغبين فى الدراسات العربية الاسلامية الى المشرق •

ـ واما تجديد هذه الجامعة تحت اشرافهم وبمراقبتهم وتوجيههم ، الشىء الذى سيمكن من الابقاء على الشبان المغاربة فى بلادهم ، وبالتالى يمكن من تلافى احتكاكهم مع نهضة الشرق احتكاكا مباشرا •

وهذا فعلا ما وقع عليه اختيارهم • وفى هذا الاطار ايضا حيث ان نضع « الاصلاحات » الجزئية التى عرفتها جامعة القرويين والتى قامت بها ، او سمحت بها ، سلطات الحماية الفرنسية • نعم لقد كان هناك ضغط من جانب رواد الحركة الوطنية المغربية من أجل اصلاح الجامعة ، ولكن الاصلاحات التى تمت كانت جزئية سطحية، وداخلة ضمن سياسة تعليمية معينة • يقول المسيو بيكى(4) فى

كتابه « المغرب » الصادر عام 1920 ، « لقد احتفظت الحماية ، دون تردد ، بالتعليم القائم فى هذه المساجد ، وعملت على ترميمه، وعلى اعادة جامعة فاس الى سابق اشراقها (كذا) • **ومن المؤكد أنه من مصلحتنا ان لايذهب المغاربة للبحث عن هذا النوع من التعليم** (التعليم الاسلامى العالى) **فى الخارج ، كالجامع المشهور ، جامع الازهر** بالقاهرة » •

وسيشرح المسيو مارتى(5) فى كتابه « مغرب الغد » الصادر عام 1925 ، بوضوح وبمنطق استعمارى متماسك ، الموقف الذى يجب ان تتخذه الحماية من اصلاح القرويين فيقول : انه على الرغم من ان القرويين تجتاز أزمة خانقة ، فانها لن تموت ، بل لابد أن تتطور تطورا ذاتيا بتأثير الافكار الوافدة من الشرق ، وفى هذه الحالة سينقلب الامر ضد الحماية وتصبح عاجزة عن التحكم فى الاحداث ، ولذلك « يجب ان تعمل على تجديد القرويين لانه اذا لم نفعل ذلك نحن ، فان هذا التجديد الذى تفرضه الظروف سيتم بدوننا وضدنا» • ثم يضيف : ان تجديد القرويين سيمكننا من «الاحتفاظ فى المغرب بهؤلاء الشبان النازحين من عائلات مرموقة ، بدل تركهم يذهبون الى الشرق لتلقى العلم الذى ستحرمهم منه القرويين فى حالة عدم تجديدها » ثم يتساءل : ماذا يمكن ان يأتى به هؤلاء الشبان من الشرق ؟ « الا يعودون مزودين بميول انجليزية (كذا) او بروح النهضة الاسلامية والتعصب الوطنى ؟ » •

لقد استقر رأى المخططين للسياسة التعليمية الاستعمارية فى المغرب على ضرورة اجراء اصلاح شكلى على القرويين يبعث فيها بعض الحياة • اما طريقة هذا الاصلاح ومضمونه ، فيحدثنا عنها المسيو مارتى فى كتابه المذكور ، حيث يقترح : تعيين شخصية فرنسية تتولى التخطيط للاصلاح والاشراف على تنفيذه ومراقبته ، هذه الشخصية يجب ان لا يعلن عنها ، بل ينبغى ان تعمل من وراء ستار

كمحرك للجنة من العلماء تعين ، بالاتفاق مع المخزن ، لهذا الغرض ثم ينتهي الى القول : « .. **ومن هنا يتضح ان هذه التدابير المختلفة المقترحة من اجل تجديد القرويين ، والخاضعة لمراقبة فرنسية دقيقة ، ليست ، ابدا ، تدابير ثورية ، انها لا تستهدف غير بعث نفس الحياة القديمة التي كانت لجامعة القرويين ، وليكن بصيغة جديدة .. انها (تدابير) ستمكننا من توجيه التطور الداخلي لهذه الجامعة ، التطور الذي بدأ يعلن عن نفسه منذ الان . ان المثل القائل « لا تحرك من لايحرك ساكنا » هو بكل تأكيد من أحسن المبادىء السياسية . ولكن عندما يتمامل النائم ويهدد باليقظة . فان الحكمة تقتضي ، ولاشك ، ان لايترك الانسان نفسه يفاجأ بالاحداث » .**

نعم ، لم تترك الحماية الفرنسية الاحداث تفاجئها ، بل خططت لها ، وتحكمت فيها ووجهتها . وهكذا بقيت جامعة القرويين ومعها كلية ابن يوسف بمراكش .. تعمل ، طوال عهد الحماية في نفس الاطار الذي عرفته من قبل ، وبنفس المضمون الذي ساد فيها ايام انحطاطها . وهذا الاطار وهذا المضمون هما نفس ما ستعرف هذه الجامعة في المغرب المستقل ، مغرب اليوم !

نعم لقد كانت هناك اصداء للنهضة العربية ، وكانت هناك حركة سلفية وروح وطنية مناهضة للاستعمار حمل لواءها شيخ الاسلام محمد بلعربي العلوي وبعض تلامذته ، ولكن هذه الحركة او هذه الروح كانت تعمل اما خارج هذا المضمون وذاك الاطار ، واما تحديا لهما .. **اما القرويين كمؤسسة تعليمية فقد بقيت دوما تحمل على جبينها سمات المجتمع الاقطاعي المتخلف وايديولوجيته المنحطة .**

هذا عن أسس ومضمون التعليم الاصلي الذي ورثه المغرب المستقل ، والذي مازال قائما الى الان يجسم بوجوده وبمشاكله جانبا من جوانب المشكل العام : مشكل التعليم ·

اما عن التعليم الحديث ، بكل اصنافه ، فيمكن الرجوع به هو الآخر الى ما قبل الحماية · وهنا يجب ان نبادر الى القول بأن المغرب لم يعرف ، قبل الحماية ، تعليما حديثا ينمو ويتطور وينتشر ، الى جانب التعليم الاصلي ، كما حدث في الشرق ، خاصة في مصر وسوريا ولبنان · ذلك لان النهضة العربية الحديثة التي حملت لواءها بواكير البورجوازية العربية ضد الحكم الاقطاعي التركي والاحتلال الاوربي ، والتي يمكن الرجوع بها الى منتصف القرن التاسع عشر على الاقل ، لم تتردد اصداؤها في المغرب ـ كما قلنا ـ الا ابتداء من اواخر العشرينيات من هذا القرن ·

وانه لمما له دلالته ان يلاحظ المرء كيف **ان المغرب ظل** غائبا عن هذه النهضة ، طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر والعقد الاول من هذا القرن ، على الرغم من انه ظل محافظا على استقلاله ولو شكليا ، وبالرغم من انه كان اقرب البلدان العربية الى باريس ، ملتقى الحركات التحررية العربية السرية والعلنية ، والمكان الذي كان تصدر منه « العروة الوثقى » ، لتوزع على العالم العربي الاسلامي الا المغرب (لم نعثر على ما يؤكد العكس) ·

لعل هذا راجع جزئيا الى ان الحركات التحررية في المشرق كانت رد فعل ضد الاحتلال التركي والتدخل الاستعماري ـ الشيء الذي لم يعرفه المغرب يومئذ ـ ولكنه في الحقيقة راجع في الاساس الى العوامل الذاتية ، الى الوضعية العامة بالمغرب آنذاك · ان العناصر البورجوزية والارستقراطية التجارية التي عرفها المغرب قبل الحماية لم تكن تعيش في وضعية تساعدها على ان تسم

بميسمها بعض مرافق الحياة المغربية وعلى راسها التعليم • لقد كانت تعيش وضعية شاذة جدا : البلاد فى فوضى مستمرة ، فى ثورة عارمة دائمة ضد حكم اقطاعى متخلف بنى وجوده على جيش « العبيد » ـ عبيد البخارى ، ضدا على القبائل المغربية كلها التى كانت تعيش حالة ثورة دائمة غير منظمة (السيبة) ، مما جعل المخزن يسقط فريسة للانقلابات ، والانقلابات المضادة التى كان يقوم بها زعماء « العبيد » ، والتى كانت ترافقها عمليات واسعة من النهب والمصادرة للاموال والممتلكات • اضف الى ذلك المكوس والضرائب الباهظة التى كانت تفرض من جانب المخزن على التجار والاسواق والموانيء لتغطية نفقات الحروب الاهلية ومتطلبات المخزن وحاشيته ، او لتسديد الديون للدول الاوربية أو أداء التعويضات لها من جراء حرب او هزيمـة •• كـل ذلـك جعـل العـناصر البـورجوازيـة والاستقراطية التجارية فى المغرب مهـددة فى وجودهـا المـادى باستمرار ، فلجأت الى « الاحتماء » بالدول الاجنبية ، ابتغاء لنوع من الحصانة الديبلوماسية داخل بلادها • وفى مساقط رؤوسها . حصانة تجعلها فى مأمن من ان تمتد اليها يد المخزن بكيفية ساخرة ومباشـرة •

لم يكن من الممكن ، اذن ، أن تتجذر هذه الطلائع البورجوازية، ولا ان تقوم بما قامت به مثيلتها فى المشرق من نشر الايديولوجيا الليبرالية الغربية وانشاء تعليم عصرى يحمل هذه الايديولوجيا • ولذلك ظل الفكر الاقطاعى هو السائد ، وظل التعليم فى المغرب تعليما عتيقا منحطا يجتر نفسه ويعكس وضعية شـاذة مهـزوزة متخلفـة ••

ولذلك فمن العبث البحث فى هذه الفترة عن اصداء لتلك الحركة العلمية التى عرفها الشرق العربى والاسلامى آنئذ •• وانما يمكن ان نعثر فقط على اصداء للحركة الصهيونية داخل صفـــوف

اليهود المغاربة ، الذين نجد لديهم فعلا مدارس عصرية حديثة هى الاساس الذى قام عليه التعليم الاسرائيلي في المغرب ، هذا التعليم الذى مازال يشكل ارقى انواع التعليم الموجودة حاليا فى المغرب ، مغرب 1972 !

بالفعل ، يمكن الرجوع بتاريخ التعليم الاسرائيلى بالمغرب الى حدود سنة 1864 ، وهى السنة التى اصدر فيها الملك محمد بن عبد الرحمان (1859ـ1873) ظهير « الحرية لليهود » . وقصة هذا الظهير كما تحكيها المصادر التاريخية(6) هى أن اربعة من اليهود المغاربة اتهموا بتسميم مندوب الحكومة الاسبانية المكلف باستيفاء التعويضات التى فرضتها اسبانيا على المخزن بموجب معاهدة تطوان (1860) عقب هزيمته فى هذه المدينة . ولقد طالبت الحكومة الاسبانية بمعاقبة المتهمين ، فأعدم اثنان منهم عام 1863 .. وكانت هذه الحادثة ، اعدام اليهوديين ، فرصة استغلتها الرابطة الاسرائيلية العالمية للقيام بحملة ضد « اضطهاد » اليهود في المغرب فبعثت بأحد اعضائها البارزين موسى حايم مونتيفيور Moses Haïm Montefiore

للتدخل شخصيا لدى السلطان بمراكش .. وفعلا اتصل هذا اليهودى الغنى بالسلطان ، وقدم هداياه ، فحصل على ظهير صدر يوم 5 فبراير 1864 (1280هـ) وقد ورد فى هذا الظهير : « .. نأمر من يقف على كتابنا هذا .. من سائر خدامنا وعمالنا والقائمين بوظائف اعمالنا ، ان يعاملوا اليهود الذين بسائر ايالتنا بما اوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق ، والتسوية بينهم وبين غيرهم فى الاحكام ، حتى لا يلحق احدا منهم مثقال ذرة من الظلم ولايضام ، ولاينالهم مكروه ولا اهتضام » . ويقول صاحب الاستقصاء (7) الذى اورد نص هذا الظهير « ولما مكنهم السلطان من هذا الظهير اخذوا منه نسخا وفرقوها فى جميع يهود المغرب ، وظهر منهم تطاول وطيش .. »

كان من نتائج هذا الظهير قيام اليهود المغاربة بتوثيق روابطهم مع الرابطة الاسرائيلية العالمية ، وبممارسة انواع من الانشطـــة داخل البلاد بكيفية علنية رسمية ، من جملتها انشاء عدة مدارس عصرية بمساعدة الرابطة المذكورة وتحت مراقبتها(6) • وهكذا اخذت تظهر على التوالى ، فى مختلف المدن المغــربيــة ، مــدارس اسرائيلية ، تقدم لابناء اليهود المغاربة تعليما عصريا يلقن باللغة الفرنسية ويعلم اللغة العبرية (من جملة هذه المدارس مدرســة بالعرائش اسست عام 1878 ، واخرى بفاس عــام 1882 وثــالثــة بالصويرة عام 1888 ورابعة بالرباط 1903 وخامسة بالبيضاء 1903 وسادسة باسفي 1901 وثامنة بالقصر الكبير وتاسعة بازيلال •• بالاضافة الى مدرسة طنجة التى يرجع تاريخها الى 1862)(8)

لقد وجدت الحماية الفرنسية بالمغرب تعليما اسرائيليا حديثا (20 مدرسة سنة 1908 بها نحو 4000 طفل) يتخذ من اللغة الفرنسية لغة علم وثقافة ، فشجعته وامدته بالمساعدة اللازمة واولته كامل الرعاية كما سنرى فيما بعد • (نشير هنا الى انه ابرمت عام 1915 اتفاقية بين الرابطة الاسرائيلية العالمية ومديرية التعليم بالمغرب ، ثم جددت عام 1928 ، وهى اتفاقية تعتبر بمثابة القانون الاساسى المنظم للتعليم الاسرائيلى فى المغرب • وبمقتضاها كانت تتلقى هذه المدارس الاسرائيلية اعانات مالية من ادارة الحماية ، وقد بقيت حكومات الاستقلال توالى تقديم هذه الاعانة)•

هذا عن التعليم الاسرائيلى الذى وجدته الحماية بالمغرب ، اما عن مدارس الجاليات الاوربية فلقد كانت هناك عام 1908 ، 13 مدرسة اسبانية و 4 مدارس انجليزية • اما المدارس التى كانت تشرف عليها الرابطة الفرنسية فهى نوعان : « **المدارس العربيــة الفرنسية** » (مدرسة طنجة 1898 ، مدرسة العرائش 1905 ، مدرسة وجدة 1907) ، و « المدارس الفرنسية » المحض (مدرسة روبيني

بطنجة 1888 ومدرسة بيرى بطنجة كذلك 1904 ومدرسة بترمان بالبيضاء 1907) (9) ٥ المدارس التى من النوع الاول كانت تلقن ابناء المغاربة تعليما فرنسيا اوليا مع بعض المواد العربية ، والمدارس التى من النوع الثانى كانت خاصة بابناء الجالية الفرنسية . وكان التعليم فيها مماثلا للذى كان موجودا فى فرنسا • « المدارس الفرنسية العربية » هى نواة التعليم الاهلى ـ الاسلامى ـ الذى اقامته فرنسا بالمغرب ، اما « المدارس الفرنسية » المحض فهى نواة التعليم الاوربى الذى كان يشكل ايام الحماية ارقى انواع التعليم بالمغرب ، وهو خاص بالاوربيين عموما ، وقد تحول بعد الاستقلال الى « مدارس البعثة الفرنسية » مع استمرار بقايا منه فى بعض مؤسساتنا التعليمية الى الآن ٥

تلك كانت بكيفية اجمالية ، الارضية العامة التى اقامت عليها الحماية الفرنسية تعليمها فى المغرب • ونحن عندما قمنا باستعراض هذه الارضية ، وحينما سنستعرض فيما يلى مضمون السياسة التعليمية الفرنسية ، ببلادنا ، لا نفعل ذلك لمجرد الرغبة فى سرد حقائق تاريخية ، ولكن من أجل أن نتبين بوضوح الهيكل العام والمضمون الاجتماعى والسياسى الذى قام عليهما تعليمنا الراهن •

ما هى المبادىء الموجهة والاهداف الظاهرة والخفية التى بنت عليها الحماية الفرنسية سياستها التعليمية فى المغرب ؟

للاجابة عن هذا السؤال طريقان ممكنان : اولهما الرجوع الى التخطيط الذى قد تكون سلطات الحماية قد اعدته قبل الشروع فى اقامة هيكلها التعليمى • وثانيهما استخلاص هذه السياسة من نتائجها الفعلية ، أى من خلال السير العام لهذا التعليم ، من خلال المراحل التى قطعها والاهداف التى حققها • الطريقة الاولى تاريخية تستند على وثائق تشهد على نية صاحبها . والطريقة الثانية

استنتاجية ـ استقرائية تستند على وقائع تكشف عن حقيقة سلوكه ونتائج اعماله • ومن حسن الحظ اننا نتوفر على الامكانيتين معا •

فلنبدأ ، اذن ، بالوثائق ، بالشاهدات التى تشهد على نوايا اصحابها •• وتجنبا للاطالة والتكرار سنعمد فقط الى شهادتين مهمتين جدا ، صادرتين من شخصيتين تعتبران من ابرز المسؤولين الفرنسيين الذين خططوا للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب ، والذين سهروا على تنفيذها مدة من الزمن •

« منذ سنة 1912 دخل المغرب فى حماية فرنسا ، ولقد اصبح فى الواقع ارضا فرنسية • وعلى الرغم من استمرار بعض المقاومة فى تخومه ، تلك المقاومة التى تعرفون أنتم واخوانكم فى السلاح مدى ضراوتها ، فانه يمكن القول ان الاحتلال العسكرى لمجموع البلاد قد تم • ولكننا نعرف ، نحن الفرنسيين ، أن انتصار السلاح لا يعنى النصر الكامل : ان القوة تبنى الامبراطوريات • ولكنها ليست هى التى تضمن لها الاستمرار والدوام • ان الرؤوس تنحنى امام المدافع فى حين تظل القلوب تغذى نار الحقد والرغبة فى الانتقام • يجب اخضاع النفوس بعد ان تم اخضاع الابدان • واذا كانت هذه المهمة اقل صخبا من الاولى ، فانها صعبة مثلها ، وهى تتطلب فى الغالب وقتا أطول • »

بهذه العبارات البليغة خاطب المسيو هاردى(10) مدير التعليم بالمغرب جماعة من المراقبين المدنيين اجتمعوا بمكناس عام 1920 فى دورة من الدورات التكوينية التى كانت تنظمها لهم سلطات الحماية لتزويدهم بالتوجيهات اللازمة ، وارشادهم الى طريقة العمل فى المناطق التى كلفوا بالسيطرة عليها •

« **يجب اخضاع النفوس بعد أن تم اخضاع الابدان** » ·· عبارة تفصح بوضوح عن كامل مضمونها ·· ولكن الاهم من ذلك هو الصراحة التي يشرح بها هذا المسؤول الكبير (منصبه يوازى منصب وزير التعليم) مخططه وبرنامج عمله ·

يلاحظ اولا أن سكان المغرب طوائف ثلاث : المسلمون ، الاسرائيليون ، الاوربيون ، لكل منها ثقافتها الخاصة وتعليمها الخاص · والتجديد او التطوير الذى ينبغى على الحماية ادخاله فى التعليم يجب ان يراعى هذا التقسيم الطائفى اولا ، كما يجب ان يراعى الوضعية الخاصة بكل طائفة · وهنا يبدأ فى تحليل الوضعية الاجتماعية والفكرية لهذه الطوائف الثلاث ·

فبالنسبة للمغاربة ـ المسلمين ـ يلاحظ انهم يشكلون ثلاث طبقات متمايزة :

ـ **طبقة النخبة** ، وهى متعلمة مثقفة نسبيا وتتكون من رجال المخزن والعلماء وكبار التجار وجميع من يعبر عنهم باعيان البلد ·

ـ جماهير المدن الكادحة ، الجاهلة المحرومة ·

ـ جماهير البادية المتخلفة ، المنعزلة ، المبعثرة ··

وبعد تحليل وضعية هذه الطبقات ومميزاتها الخاصة يستخلص النتيجة التالية · يقول :

« ·· **وهكذا فنحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية ، وتعليم لعموم الشعب · الاول يفتح فى وجه ارستقراطية ، مثقفة فى الجملة ، متحضرة ومهذبة ، ولكنها ارستقراطية توقفت عن النمو الفكرى بسبب تاثير العلوم الوسيطية (= القرون الوسطى) واصبحت مهددة فى وجودها المادى بسبب**

اهمالها للاساليب الاقتصادية الحديثة نتيجة اللامبالاة من جانبها· ان التعليم الذى سيقدم لهذه النخبة الاجتماعية ، تعليم تطبيقى يهدف الى تكوينها تكوينا منظما فى ميادين الادارة والتجارة ، وهى الميادين التى اختص بها الاعيان المغاربة · اما النوع الثانى وهو التعليم الشعبى الخاص بجماهير السكان الفقيرة والجاهلة جهلا عميقا ، فسيتنوع بتنوع الوسط الاقتصادى : فى المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية (خاصة مهن البناء) والى الحرف الخاصة بالفن الاهلى ، هذا الفن الذى يكتسى اهمية خاصة من جميع الوجوه ، والذى يجب العمل على احيائه وبعثه · اما فى البادية فسيوجه التعليم نحو الفلاحة ، والتشجير وتربية المواشى · واما فى المدن الشاطئية فسيكون التعليم موجها نحو الصيد البحرى والملاحة » ·

اما عن « المواد العامة » التى ستتخلل هذا التعليم التطبيقى، فهى ، بطبيعة الحال ، **اللغة الفرنسية** التى بواسطتها « **ستتمكن من ربط تلاميذنا بفرنسا** » ، **والتاريخ** الذى يجب ان يعطيهم «**فكرة عن عظمة فرنسا** » ولكن دون اهمال تاريخ المغرب (كذا) ··

هذه هى انواع التعليم التى خص بها المسيو هاردى المغاربة المسلمين · وواضح انها كلها **تستهدف خدمة المصالح الاقتصادية والسياسية الفرنسية** : فمدارس النخبة مهمتها تكوين الموظفين والاعوان الاداريين ليكونوا صلة الوصل بين الشعب وسلطات الحماية · ومدارس المدن مهمتها تكوين اليد العاملة المدربة للمعامل والمصانع الفرنسية داخل البلاد وعلى الشواطىء · واما مدارس البادية فمهمتها اعداد اليد العاملة المدربة لضيعات المعمرين وحقولهم ·· فالهدف القريب والبعيد هو اعداد « الادوات البشرية » المغربية التى بامكانها ان تخدم السيطرة الفرنسية بشكل أفضل ·

على انه لسنا هنا فى حاجة الى الكشف عن المرامى الخفية لهذه السياسة الاستعمارية ، فقد اشار اليها المسيو هاردى بنفسه ، وبوضوح ، حينما قال :

« ان تعليمنا سيمكن الصغار من الحصول على المفردات الضرورية للحياة العائلية والمهنية ، كما سيمكن الكبار من اكتساب القدرة على تحرير رسائل الاعمال (الخاصة برجال الاعمال) ٠٠ ان هذه المبادىء التى يجب مراعاتها من اعلى الى اسفل فى سلك تعليمنا ستجد طريقها نحو التطبيق بواسطة المؤسسات الآتية : **للنخبة الاجتماعية مدارس ابناء الاعيان التى تعطى فقط تعليما اوليا ، وثانويات اسلامية تهىء للوظائف الادارية والتجارية • وللطبقات الشعبية فى المدن مدارس حضرية تعمل على اعداد اولى للمهن اليدوية ، والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس المهنية • اما جماهير البادية فستكون لها مدارس قروية مزودة ببساتين للتعليم والتطبيق ، تعمل على تلقين المعلومات الاولية فى الفلاحة وتربية الماشية ، والنجباء من تلاميذها يوجهون الى المدارس الحقلية• اما بالنسبة لسكان الشواطىء فستكون هناك مدارس خاصة بهم توجه الاطفال نحو الصيد والملاحة » •**

والفكرة الاساسية الموجهة التى تقف وراء هذا التخطيط وهذا التنويع فى المدارس ، هى التالية • يقول بالحرف الواحد : **« ان اكثر ما يجب ان نهتم به هو ان نحرص على ان لا تصنع لنا المدارس الاهلية رجالا صالحين لكل شىء ولا يصلحون لاى شىء • يجب ان يجد التلميذ بمجرد خروجه من المدرسة عملا يناسب التكوين الذى تلقاه ، حتى لا يكون من جملة اولئك العارفين المزيفين اولئك اللا منتمين طبقيا ، العاجزين عن القيام بعمل مفيد ، والذين تنحصر مهمتهم فى المطالبة ، هؤلاء الذين عملوا فى المستعمرات**

الفرنسية الاخرى ، وفي غيرها من المستعمرات ، على جعل التعليم الاهلي يصبح منبعا للاضطراب الاجتماعي » ·

هذه الافكار الاساسية الموجهة يعود المسيو مارتي(II) يشرحها ويفصل القول فيها في كتاب صدر له عام 1925 بعنوان : « **مغرب الغد** » حيث حدد بدقة ثلاثة مبادىء اساسية يجب ان يقوم عليها التعليم الفرنسي في المغرب · وهذه المبادىء هي :

I ـ انتقاء زبناء المدارس على أساس طبقي :

ويشرح هذا المبدأ فيقول : « هناك انقسام طبقي واضح في المغرب · فالطبقات يتميز بعضها عن بعض بوضوح كامل · وكل منها سعيدة (كذا) بحظها ونصيبها ·

ففي اسفل السلم هناك الجماعات الدنيا ، نصف مستعبدة ونصف مسخرة ، وهي تتحرر معنويا من يوم لآخر ، وتتطور نحو الخدمة المأجورة ·

ثم هناك الشعب : فلاحون ، ورعاة ، وعمال منتظمون في اتحادات مهنية او غير منتظمين ·

ثم هناك البورجوازية التجارية والقروية ·

واخيرا هناك في اعلى السلم « رجال المخزن » الذين يديرون البلاد ، و « رجال الدين » سواء كانوا من الشرفاء او العلماء أو من المتصوفين واصحاب الزوايا ·

·· وانه لمن واجبنا ومن اجل مصلحتنا معا ، عندما نوجه مجهوداتنا لادخال اصلاحات ثقافية في المجتمع المغربي ان لا نعمل

على زعزعة بنية هذا المجتمع وان لا نمس تقاليده • يجب ان نعطى لجميع الطبقات « خبز الحياة » (= التعليم) الذى يناسبها والذى هى فى حاجة اليه ، كما يجب ان نوجه تطور كل من هذه الطبقات فى الاطار الخاص بها •• هنا كما فى بلدان اخرى ، توجد بروليتاريا يدوية • ان ابناء العمال والفلاحين والصيادين هم موضوع اهتمام زائد من طرف الحماية ، ان لهم مدارسهم الابتدائية ذات الاتجاه المهنى ، الفلاحى ، الرعوى ، الملاحى حسب المناطق •• ولكن ليس لدينا فى المغرب بروليتاريا فكرية • فهل هناك أية فائدة فى خلق مثل هذه البروليتاريا الفكرية ، سواء بالنسبة لمصلحة المجتمع المغربى او بالنسبة للسيطرة الفرنسية ؟

يقينا ، لا • ان عملنا العظيم الذى نقوم به من اجل التجديد الثقافى يجب ان ينحصر فقط ضمن الاطر التقليدية لهذا المجتمع • وسيتجه نحو البورجوازية التجارية والقروية، نحو موظفى المخزن ، نحو رجال الدين او رجال العلم ، وبكلمة واحدة نحو النخبة •• ان الخطر كل الخطر كامن فى صنع طبقة من المثقفين ثقافة اوروبية، طبقة لا ركائز لها ولا ماض ولا تقاليد ، الشىء الذى سيجعل منها مرتعا خصبا لجميع الاغراءات •

واذن فيجب ان لا نهتم بالكم (اى بتعميم التعليم) ، يجب ان لا نصنع فى المغرب ، سنة بعد أخرى ، وبشكل مطرد ، وعلى حساب مصلحة المجتمع المغربى ومصلحة الامبراطورية الفرنسية ، رجالا ينمى فيهم التعليم اذواقا وحاجات وآمالا لن يقدروا هم على ارضائها بانفسهم ، ولن تقدر الحماية ولا المخزن ولا المستعمرة ولا الاقتصاد المغربى على تحقيقها لهم •• فكيف لا يجزم المرء بان هذه القدرات التى ستبقى دون عمل ، ستنقلب ضد مصلحتها (كذا) وضد مصلحتنا نحن •• ؟ ولهذا فانه من المستحيل ، بعد الذى قلناه ، ان يخرج المرء بنتيجة غير النتيجة التالية : ان ابناء مدارسنا

الثانوية ، ومدارس ابناء الاعيان ، يجب ان يكونوا من هذه النخبة الاجتماعية التي يقبلها الشعب ويحبها ويحترمها والتي تحكمه بكل قوى الدين والعلم والهيبة والادارة والثروة ٠٠ يجب ان لا نخلق ـ بواسطة التعليم ـ جماعة من الساخطين المستائين اللا منتمين طبقيا لنبق اسياد المستقبل ، لنجمع بين الصفوة الاجتماعية والنخبة الفكرية ، وذلك بمنح التربية الفكرية الرفيعة لاطر المجتمع المغربي وحدها ، اولئك الذين يستطيعون استيعابها واستعمالها ٠٠» ٠

2 ـ الابقاء على الشبيبة في المغرب :

« ومن اجل هذا الغرض انشئت المدارس الاسلامية الثانوية. وهذا مبدأ يجب أن نتمسك به كلية لان له قيمة مطلقة ٠ » وبعد ان يشرح المسيو مارتي المتاعب التي جنتها بريطانيا بسبب السماح لشباب مستعمراتها بالدراسة في الخارج حيث « **يتلقون في الجامعات وفي المقاهي والشوارع ، مبادىء وآراء ثورية** » **يقول** : « ان هذه المخاطر يمكن تجنبها الى حد كبير اذا بقي الشباب المغربي يتابعون دراستهم الثانوية والعالية في نفس المكان (المغرب) ٠٠ لنحتفظ اذن بشبيبتنا المغربية في المغرب ، ولنتخذ هذا قاعدة لا نحيد عنها الا اذا كان الامر يتعلق بطلاب الشعب العلمية والتقنية التي لها اهداف واضحة (المدارس العليا للفلاحة ، والكهرباء ، والميكانيك والصناعات المختلفة » ٠

3 ـ الحفاظ على الروح الدينية

اما المبدأ الثالث الذي يجب ان تقوم عليها السياسة التعليمية كما يرسمها المسيو مارتي فهو المحافظة على الروح الدينية في المدارس الثانوية الخاصة بالمغاربة ، وذلك قصد الابقاء على المثقفين المغاربة في اطار وضعيتهم التقليدية ٠ وخلاصة ما يقرره في هذا

الشأن هو ان الابقاء على الروح الدينية المحافظة ضرورة اكيدة ، لان ادخال العلمانية للمدارس يعنى ادخال نار الثورة فى المجتمع المغربى ، ولان الابقاء على هذا المجتمع راكدا محصورا فى أطـــره التقليدية يتطلب الابقاء على نوعية الفكر الدينى السائد ٠

هذه هى المبادىء العامة الاساسية الـتى حـرص دهاقنة الاستعمار الفرنسى على تطبيقها بدقة بخصوص التعليم الذى انشأوه لابناء المغاربة ٠

اما بالنسبة للتعليم الاسرائيلى فسنترك المسـيو هـاردى يتحدث لنا عن نواياه ازاءه ، فى محاضرته المشار اليه قبل ٠ ولنبدأ معه بالفتيات الاسرائيليات يقول :

« واما بالنسبة للفتيات (الاسرائيليات) فيجب ان نجعـل منهن ، قبل كل شيء ربات منزل نظيفات ، سليـمات الجـسم ، مسلحات بمبادىء التربية وقواعد حفظ الصحة ، كما يجب ان نفتح للائى يردن منهن عملا يكسبن به عيشهن ، مصانع للخياطة والطرز ومعالجة الثياب والحرير ٠٠ وبذلك سنخصص لهن ميدان للعمل لاينافسهن فيه أحد ٠ وبذلك ايضا سنحمل الى « الملاح » الذى يعرف لون الذهب ، سنحمل اليه اللون الازرق واللون الوردى ، يالها من ثورة ، لو نجحنا فى تحقيقها »٠

اما مدارس ابناء اليهود ــ الذكور ، فيقول عنها انها يجب أن تكون معاهد للتكوين الجسمى والجمالى ، تعنى بالرياضة البدنية وتعليم قواعد الصحة وتشتمل على مطاعم مدرسية ، وذلك حتى يصبح فى الامكان « تحويل العقلية اليهودية المغـربية الى عقليـة متحضرة مع احترام الدين والعادات الدينية الاسرائيلية ٠ واما من النـاحيـة العلميـة الفنيـة ، فيجـب تعـليـم الاسـرائيليـيـن تعليما فنيا كالمحاسبة التجارية والتسيير الادارى ، وعلى العموم

اعدادهم للميادين العصرية المنتجة اعدادا يحارب فيهم الفقر » .

ليس هذا فحسب ، بل ان المسيو هاردي يدخل في حسابه منذ ذلك الوقت ، اى منذ 1920 ، المطامح الصهيونية لدى اليهود المغاربة . يقول بالحرف الواحد :

« يمكنني أن اؤكد اننا سنتوفر قريبا على مدارس فنية كبرى تجعل من شبابنا الاسرائيليين فنيين واختصاصيين من الدرجة الاولى فى الميكانيك والنجارة الفنية . **ومن يدرى فاذا كان بعضهم متأكدا من انه سيجد نفسه يوما يعيش في طمانينة الارض الموعودة – ارض فلسطين – فما عليهم الا ان يقبلوا منذ الآن على المدارس الفلاحية** » .

يبقى اخيرا التعليم الاوربى الخاص بابناء الفرنسيين خصوصا والاوربيين عموما ، وهو تعليم لايحتاج الى شرح مخطط الحماية بشأنه : خصوصا ونحن نعلم أنه بقى دوما التعليم الممتاز بالمغرب ، التعليم الذى يساير التعليم الموجود بفرنسا . ويكفى أن ننظر الى « مدارس البعثة الفرنسية » الموجودة حاليا ، والتى هى استمرار له ، انها خير من يعطينا تفاصيل اخباره .

تلك كانت بالاجمال الاسس والمضامين التى اقامت عليها فرنسا سياستها التعليمية بالمغرب ، نعود فنجملها فيما يلى :

– الابقاء على التعليم الاصلى – تعليم القرويين – كما كان ، وادخال اصلاحات جزئية تبحث فيه بعض الحياة ولكن دون السماح **لاى تغيير جذرى يمس هيكله او مضمونه** .

ـ انشاء تعليم أهلي ـ اسلامي ـ طبقي استعماري ، الهدف منه اعداد الاطر المتوسطة الصالحة لخدمة الـوجـود الاستعماري الفرنسي بالمغرب ، السياسي منه والاجتماعي والاقتصادي ٠

ـ منع الشباب المغربي من التفتح على المشرق العربي ، وعزله عن التيارات التحررية التي كانت تهب على العالم العربي الاسلامي او التي كانت تجتاح العالم الاوربي ٠

ـ العناية الفائقة ببنات وابناء اليهود المغاربة واعدادهم الاعداد اللازم للحياة العصرية الفنية والادارية والتجارية ، والنظر بعين العطف الى مطامحهم الصهيونية ٠

ـ تخصيص القسط الاوفر من ميزانيــة التعليــم المغربيـة للمدارس التي تعلم ابناء الاوربيين عامة وابناء الفرنسيين خاصة ٠

هل طبقت الحماية الفرنسية هذه السياسة التعليمية فعلا ؟ ليس المهم الاجابة عن هذا السؤال بالف نعم ٠ ولكن المهم هو ان هذه المبادىء مازالت بنفس مضمونها ، تتحدث عن نفسها في تعليمنا الحالي على الرغم من مرور سبعة عشر عاما على استقلالنا ٠

المراجــع والهوامــش

1) Paul Marty : **Le Maroc de demain.** C.C.P. Paris 1925

2) A. Peretié : **Les Médrassas de Fès.** Archives Marocaines Volume XVIII. Paris 1912

3 ـ عبد الله كنون : **النبوغ المغربي في الادب العربي** . ص 277
دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1961

4) V. Piquet : **Le Maroc.** P 304 Armand Calin Paris 1920

5) Poul Marty : P. 71-81

6) Jacques Caillé : **La petite Histoire du Maroc.** E. Atlantique Casablanca 1954.

7 - ابو العباس احمد الناصرى : الاستقصاء ، ج 9 ص 113 دار الكتاب البيضاء 1956 .
انظر تقرير أصول التعليم بالمغرب عام 1904

8) Annuaire du maroc : deuxième année 1904. P. 153.

9) Ch. René-Leclerc : **L'enseignement au Maroc.** Alger, 1908.

10) M.G. Hardy : **Le Problème Scolaire au Maroc. Casablanca.** Imp. Rapide 1920.

11) Paul Marty : Ibid. P. 122, 123, 124

جان مـارى دومينـاك   ترجمة : عبد السلام بنعبد العالى

الكلمة الاخيرة في الاستلاب

(الاستـلاب alienation موضـوع الساعة فى الفكر الغربى المعاصر • واذا كنت أعتزم أن أنقل الى القارىء العربى على صفحات هذه المجلة ، بعض النصوص والابحاث الاساسية حول هذا الموضوع، فذلك ليس من قبيل الاهتمام بـ « موضة » ثقافية ، بقدر ما هو محاولة لمعرفة ما اذا كان الاستلاب مجرد مفهوم زائف كما كتب (فيدال) أو ما اذا كان مفهوما يفترض فلسفة ما هوية ونزعـة انسانية ، تتنافيان وكل وعى تاريخى كما يزعم (ألتوسير) وجماعته، أو ما اذا كان فى الاخير ، من أهم المفاهيم التى لا يمكن الاستغنـاء عنها فى الدراسات الانسانية كما يرى أتباع (لوكاش) •

وهذا بحث نشره مدير مجلة « الفكر » الفرنسية سنة 1965 . وهو مفكر ذو نزعة شخصانية كما هو معروف • وغنى عن التذكير أن ما جاء فى هذا البحث لا يلزم الا الكاتب وحده) •

الاستلاب : مفتاح الفكر المعاصر • فلو أن علماء اللغة وجهوا آلاتهم لتصغى لما يكتبه البحاثون والنقاد والفلاسفة عندنا ، فاننى أراهن على أن لفظ **استلاب** سيأخذ قصب السبق من حيث ترداده • واننا (الفرنسيين) لسنا آخر من استعمل ذلك اللفظ • فان أى امتعاض نفسانى وأى عيب اجتماعى يتخذان عن طريـقه بعدا ذا امتياز ، وعندما يتحدث الناقد اليسارى عن مؤلف لـ (بيكيت) أو (أنطونيونى) فانه سيجد فيه التفسير النهائى لذلك الامتعاض أو العيب • وهكذا يطلق لفظ **استـلاب** كما لـو كان حجة كبرى ، واعتمادا لا يقبل النقاش ، على فلسفة شائعـة يفـوق عمقهـا كـل الانساق الفلسفية • ثم ان ذلك اللفظ يعطى من يستعمله ثقـة

بأنه ناج من ذلك الشر وبأنه قضى عليه عندما فاه بتلك الكلمة · وهكذا نصف ، بجرة قلم ، اكثر الاوضاع سوءا ، ونؤكد اننا ناجون من شرها · ورغم ان ذلك اللفظ كثير الاستعمال فهو لم يحدد قط · وما من شك أنه « لفظ لا متناه التعقيد » كما يعترف بذلك (هنري لوفيفر) بشيء من التواضع · ومن المحتمل أن نحرم أنفسنا وسيلة ملائمة جدا ، اذا ما نحن تعمقنا بحث مدلوله ·

والاستلاب كشبه مرض الزكام · فالكل مصاب به تقريبا ، والجميع يتحدث عنه ، ولكن لا أحد يعرف ما هو ؛ فلم يعثر بعد على جرثومته · أضف الى ذلك أنه ، كالزكام ، شيء نشعر به عند الاحساس بامتعاض لا نستطيع تحديده رغم اننا نتعرف عليه · ان مصادره مختلفة متنوعة ، وربما كانت هناك انواع من الاستلاب « ذات أصل نفساني » لا تقل وطأة عن الانواع الاخرى ·· وعلى كل حال ، فانه مرض حديث عهد بالوجود ؛ ويظهر أنه كان مجهولا قبل القرن التاسع عشر ، ولكن ، انتشر الوباء بعد ذلك على سطح الارض كلها ، وفي جميع ابعاد الجهاز النفسي · ويظهر اليوم ، أن لا أحد يعارض وجود ذلك المرض · فان ثلاثة من التيارات الفكرية المهيمنة على عصرنا تضعه في صلب تحليلاتها وصراعاتها : تلك التيارات هي الماركسية والوجودية والنزعة القومية · وأخيرا فان المسيحيين يتقبلونه بصدر رحب ، خصوصا وأنهم يجدون فيه نفحة دينية غامضة ·

سنحاول البحث في معنى هذا اللفظ المطاط ، متبعين في ذلك الطريقة التي تسلك في تجارب قياس مقاومة الاجسام ، وذلك بأن نمدده الى اقصى حد ممكن ، أو بالاحرى ، أننا سندعه يتمدد من تلقاء ذاته ويكشف عن نفسه ، وذلك ما سيكون الجزء الاول من بحثنا هذا ؛ اما في الجزء الثاني فاننا سنتساءل عن طبيعة هذا المفهوم واهميته وعما اذا كان يعطينا حقا وسيلة لفهم وضعنا

وتحسينه ؟ كما سنتساءل عما اذا كان يعنى حقا ما يدعيه أم أنه سيحيلنا على وقائع وعلاجات أخرى ؟ وأخيرا فاننا سنتساءل عن المكانة التي يجب أن ندعها له فى تفكيرنا وفى لغتنا ؟

— * —

I ـ تطور مفهـــوم الاستـــلاب

ـ من هيجـل الى ماركـس :

صاغ (هيجل) هذا المفهوم ليدل به على خطى الفكر الذى لا ينفك ينفصل عن ذاته تحقيقات عليه أن ينفيها ويتجاوزها • فالانسان، عند (هيجل) يخرج ماهيته باستمرار وهو لايتعرف عـلى نفســه كانسان ، الا امام ما ينتجه من اعمال ، والا امام أعمال منفصلـة عنه • والحركة الجدلية تنطلق من هذا الانفصال الاصلى : **فالفكـر** يتموضع على شكل وقائع مادية وثقافية ؛ ولكن ، عليه أن يجسد من جديد تلك الماهية « الموضعة » فى كل أرقى • والاستلاب هو هذا التصدع الذى يحدث داخل النشاط الفكرى الخلاق • (ان اللفظ الالمانى Entfermdung يعنى الانفصام والغربة فى نفس الوقت ، ومعنى الغربة alienus ليس جليا فى الكلمة الفرنسية aliéation والاستلاب كما كتب (كوستاس ببيوانو) فى دراسة قيمة(I) : « مصير شامل عام : فالواقع كله عند (هيجل) ، استلاب لله الذى « يفنى » فى العالم الذى هو من خلقه ، وهو استلاب للانسان الذى لا يمكنه أن يحقق ذاته الا اذا أضاع نفسه فيما يقوم به من أعمال (•••) ففى جميع ميادين الحياة والفكر ، وضع الانسان نفسه خارجا عن ذاته ، وجعل نفسه غريبة عنهـــا وانشأ عالما موضوعيا لا يتعرف فيه عليها • ولكـن ذلك الضياع هو اغتناء فى نفس الوقت ، فلولا ذلك الاستلاب لما تمكن **الفكـر** من معرفة امكانياته الحقيقية ولما حقق تلك الامكانيات • كان على

الفرد أن يفقد المملكة السعيدة للفكر المباشر (المدينة) وأن يعرف آلام المسيحي وأن يقضي على الاتحاد القومي وان يعاني الاستلاب في الفني وفي الدولة وأن يطمح الى سعادة فردية مستحيلة وان يمر عبر هزات الرعب ، كان عليه ان يعاني كل ذلك كي يستطيع أن يحقق امكانياته ويعرف حدوده ويحاول خلق « أنا » يكون « نحن » و « نحن » يكون « الأنا » » ٠

ولكن ذلك المفهوم لن يتخذ كثافته الفوارة وحركته القوية الا على يد (ماركس) ٠ فقد أجرى هذا الاخير على الاستلاب ذلك الارجاع الذي يعمل على انتشار المفاهيم الهيجلية وتحويلها الى اداة وعي ثوري ٠ ان (ماركس) يرجع مختلف اشكال الاستلاب (من ديني وسياسي واجتماعي) التي يلحظها في المجتمع ، الى استلاب اساسي : هو استلاب الطبقة العاملة في نظام الانتاج الراسمالي ٠ وذلك لا يعني أنه يهمل وجود الاشكال الاخرى للاستلاب ، ولكنه يربط ذلك الوجود بظاهرة اقتصادية شاملة ، هي منبع تصدع الانسان والعلاقات الانسانية وافتقارهما ٠ يقول (ماركس) في **مخطوطات 1844** : « يزداد عالم البشر فقرا كلما ازداد عالم الاشياء غنى ٠ واذا كان (ماركس) لم يستخدم – بعد سنة 1845 – لفظ الاستلاب الا قليلا ، فذلك لانه اهتم باثبات الميكانيزم الذي يرجع ، وفقه ، اغتناء عالم الاشياء عن طريق العمل ، ضد العامل ٠ ومع ذلك فان (ماركس) سيتشبث بوجود استلاب على مستوى الفكر ٠ فقد خلف له (فويرباخ) صيغة ذلك الاستلاب عندما كشف عن سر الاستلاب الديني ٠ ولا تكفي ، في رأيه ، مجاوزة ذلك الاستلاب الديني الايديولوجي بل يجب القضاء عليه ؛ لانه لايفتح طريقا للرجوع نحو الذات واسترجاع الواقع بقدر ما يشق طريقا لهروب الانسان وتشويهه ؛ ففيه يتعرى الانسان من احسن ما فيه ليبقى اصناماً يشد نفسه اليها ٠٠ والامر مخالف لذلك فيما يتعلق بالاستلاب الاقتصادي اذ أن ذلك الاستلاب هو مصدر تشويه

الانسان ، وهو ، لاجل ذلك ، مصدر استرجاعه لانسانيته ؛ وان الانسان لا يلجأ الى ابتداع استلاب ثانوى ، وعالم من الاحلام والاوهام ، الا ليفلت من عملية الاسترجاع الشاقة ٠ ان العامل قد وضع في عمله عناءه ووقته وقوته الخلاقة ، ولكن ما كان ينبغي ان يكون وسيلة لتحقيق ذاته وسعادته قد نزع منه واغتصب عن طريق نظام الانتاج الرأسمالى ٠ وهكذا تغدو نتيجة العمل نفيا له : ويسف العمل ، الذى هو حقيقة الانسان وماهيته ، الى مستوى قضاء الحاجة ، فلا يغدو الا « وسيلة لكسب العيش » ٠ لذا كان الهروب نحو عالم مثالى يبحث فيه العامل عن عزاء لنفسه وانتقام من الاستغلال والاحتقار اللذين يتعرض لهما ٠ ولذا كان ذلك النوع الثانى من الاستلاب الوهمى ، الذى هو فى حقيقة الامر ، اسقاط لعالم الاستلاب الحقيقى ، وصورة معكوسة عنه ٠

يتجلى لنا الان ، التطور الذى طرأ لذلك المفهوم بانتقاله من (هيجل) هو « الوجود الحقيقى للانسان » ؛ والاستلاب هو الوسيلة التى ينفصل بواسطتها الفكر عن العالم وعن ذاته كي يتغذى من فضلاته ، ويغتنى بافتقاره الدائم المحتوم ٠ ان الانسان ، عند (هيجل) ، هو ذلك « الكائن الذى يعانى الاستلاب ليعود الى ذاته بعد تلك المعاناة » ، انه الكائن الذى « يقترب من ذاته كلما ابتعد عنها فى وجود آخر » ٠ اما عند (ماركس) ، فان ذلك التصالح بين نفسه شىء وهمى ، وان ذلك التركيب فى كل واحد ضلال مغالط، كما ان التجاوز الهيجلى للاستلاب لا يدخل الا فى مقولة الاستلاب الثانوى الفكرى ، تلك المقولة التى يجب التخلص منها ، تلك المقولة التى يجب التخلص منها ، بادىء الامر ، لفهم الاستلاب الحقيقى الذى يوجد على صعيد النشاط العملى للانسان ؛ ان الانسان لن يستطيع اعلان النضال الحقيقى ضد الاستلاب الا بالقضاء على ذلك العالم الفكرى الذى كان يتوهم ان يجد فيه التصالح المنشود ؛ وان الاستلاب لن يقهر الا بالقضاء على

الملكية الخاصة وانتصار الطبقة المستغلة (بفتح الغ) • لذا يتصور (ماركس) ان « استرجاع الانسان لذاته وعودته اليها » هو تتويج لحركة اجتماعية واقتصادية ستوحد بين الانتاج والاستهلاك ،، بين الحاجة والاستمتاع ، بين العمل والحرية •

وهكذا فقد تناول (ماركس) المفهوم الهيجلي للاستلاب ، وأجرى عليه ارجاعا وتفكيكا في نفس الوقت • ومع ذلك فان الامر يتـــم عند (ماركس) كما لو كانت الاجزاء المبعثرة لذلك المفهوم تسعى بطبيعتها الى الانضمام لتعيد اليه معناه الواسع الذي كان له في البداية ، ولترجع له قدرته الا محدودة على امتصاص المعاني • وان المجهود الذي بذل في السنوات الاخيرة للحاق بـ (ماركس) في كتابات شبابه ، ضد الجمود الدوجماتي(2) ، قد انتهى بأن أعاد للاستلاب قيمته فأصبح نوعا من كلمة السر بين من يدعون نزعة ماركسية انسانية ، وربما كان هو اللفظ الوحيد المشترك بين اولئك وليس من شك في أن ذلك هو السبب في كونهم يستعملونه استعمالا غير دقيق • ولقد أدت تلك الظاهرة الى رد فعل عنيف بالغ الاهمية نجده عند (لويس التوسير)(3) الذي اعاد الى الاذهان بأن (ماركس) كان قد تخلى عن كل « نزعة انسانية » تقوم على طبيعة بشريــة شمولية ليضع بدلها مادية تاريخية تقوم على الممارسة • والى جانب ذلك فان (ألتوسير) يفضح الطريقة التي يستعمل بها ، بعـض الذين يدعون الماركسيــة ، مفهــوم الاستــلاب ضــد الاشتراكيــة السوفياتية عندما يريــدون انتــقاد الستــالينيــة • ثــم يضيــف (التوسير) بأن سوء الاستعمال ذاك لا يتناسب مع نزعة انسانية ضمنية او صريحة ، تعود بنا الى ما قبل التمييــز السليــم الــذى وضعه (ماركس) بين العلم والايديولوجية • أفلا تنتمي كل تلك السمات التي طبعت الستالينية من تقديس للاشخاص ، ونزعة دوجماتية وثوقية واستبداد في الحكم ، الى « بنية عليا » تتمتــع « باستقلال نسبي » ازاء البنية السفلى ؟ » فلماذا يشعر كثير من

الفلاسفة الماركسيين بضرورة العودة الى **الاستلاب** ، ذلك المفهوم الايديولوجي الذى ظهر قبل (ماركس) ، بدعوى التفكير فى تلك المشكلات التاريخية الواقعية وايجاد حل لها ؟ » اليس ذلك نتيجة لعدوى اصابت الماركسية عن طريق « النزعة الانسانية » تلك النزعة التى لا يمكنها ان تكون ، قبل بلوغ المرحلة الشيوعية ، الا ايديولوجية سابقة لاوانها وبالتالى ايديولوجية مغالطة ؟.. ويرد (جورج سيمبرون) على ذلك بان هناك فعلا نزعة انسانية ماركسية عند (ماركس) ذاته ، وبانه من التعسف ابراز ما كان سابقا للماركسية عند (ماركس) ؛ ثم يتساءل : اليست تلك النزعة الانسانية خلقا مستمرا لم تعمل الستالينية على ايقافه ؟ ويضيف بأنه اذا كان البعض يدعى استعمال النزعة الانسانية كفرس فى المعركة لـ « مجاوزة » الماركسية ، « فانه لفرس جيد وانها لمعركة جميلة » .

تقودنا تلك المناقشات الى صلب الصعوبات التى تواجه الماركسية ، ويظهر أن (ألتوسير) على كامل الحق فى قيامه ضد تلك المحاولة المنبنية على مفهوم يدعى أنه ماركسى ، فى حين أنه يؤخذ فى معناه الهيجلى الواسع . ومع ذلك فهل يمكننا الحديث عن الاستلاب دون أن يقتضى الامر وجود **طبيعة بشرية** (وهذه نقطة سنتعرض لها فيما بعد) ؟ وهل ستظل هناك ، من ناحية أخرى ، حركة تاريخية اذا مااختفى ما سماه (ماركس) استلابا ؟ يجب أن نلاحظ على كل حال أن باستطاعة ذلك اللفظ الذى كثر استعماله عند الماركسيين أن يعود ضد الماركسية ذاتها لانه مفهوم متعدد المعانى يجب حذره ؛ ولانه سلاح نقدى بامكانه أن ينفجر فى أيدى من يستخدمونه ، ولكن أصحيح أن الانتقاد الشخصانى يستطيع أن يستخدم ذلك السلاح كما شاء ، مثلما يومى الى ذلك (التوسير) ؟

المنفى :

يجب أن نلاحظ ، بادىء ذي بدء ، أن لفظ الاستلاب قد جاوز حدود الدائرة الهيجلية ليعبر عن أزمة عامة شاملة : فقد غدا يحاول أن يعبر عن نشاط انسان في عالم هو محروم منه • واصبحنا نسمع اليوم كثيرا من المفكرين والشعراء والروائيين والسينمائيين يرددون، على طريقتهم الخاصة ، ما بينه (ماكس فيبر) من فقدان الطبيعة لرونقها وروعتها عن طريق التقنية • فاليوم يتلاقى (أنطونيوني) و (ريسنيس) مع (نيتشه) و (باريس) و (بيجي) و (برنانوس) و (كامو) ليكشفوا عن حرمان الانسان والمجموعات البشرية التي اصبحت تفقد مكانتها في العالم • ان التقنية عندما غيرت ظروف الحياة وشروطها ، اصبحت ترغم فئات يزداد عددها تصاعدا مع الايام ، على أن تضحي بعالمها الخاص • انه تكيف مستمر يجعلنا نشعر اننا في منفى ونحس اننا فقدنا شخصيتنا واصبحنا نعاني التمـزق •

ويبدو جليا ، اختلاف هذا المعنى عن المعنى الماركسي للاستلاب بل ان ذلك الاختلاف يكاد يكون تناقضا • فلم يعد الامر متعلقا باستلاب عمالي ـ استلاب الانسان ـ العامل الذي يغتصب منه عمله ماديا ومعنويا ـ ؛ بل انه نوع من الاستلاب الفلاحي ـ استلاب انسان القرية الذي فقد مناظرها وروحها الجماعية وحرم افراحها واعيادها •• لم يعد الامر متعلقا باستلاب الانسان في التقنية ، بل انه استلاب يتم عن طريق التقنية ونتائجها المثيرة • وقد تنبه (هاناه أراند) الى كل هذا عندما كتب(4) : « ليس ما يميز العصر الحديث هو استلاب الأنا ـ كما اعتقد (ماركس) ـ وانما هو استلاب بالنسبة للعالم » • ومجمل القول انه بينما كان الانسان عند (ماركس) يفقد ذاته فيما ينتجه من اعمال ، اصبح هنا فاقدا لعالمه الذي ملأته التقنية زيفا وعقما ونزعت عنه روعته ورونقه •

تلك هي المفارقة التي لاحظها (فيبر) والتي يوضحها جزء كبير من ثقافتنا المعاصرة لدرجة أنه اصبح من العسير ان نتمثل غربتها عناء كلما تقدم الانسان في اختراعاته ، واضفى على ما يحيط به صبغة انسانية واستعاض عن الطبيعة بمنتوجاته الصناعية ، شعر بأنه غريب تهدده قساوة لا يستطيع فهمها كما لو كان عاجـزا عن أن يتعرف على ذاته في الموضوعات التي تنجبها عبقريته ويداه ، وكما لو كان في حاجة الى شيء آخر غير مباشر ، الى واقع مختلف كل الاختلاف عن واقعه : الى تلك الطبيعة المعتمة الخرساء التي هي ، مع كل ذلك ، ضرورية لتواصله مع الآخرين ولشعوره بالسعادة . فيبدو أن ذلك الانسان لا يشعر بالاستلاب اثناء ممارسته لنشاطه العملي ، بل يحس به في العلاقة التي تربطه بالاشياء وتشده الى طبيعة هو من صنعها وليس هو صانعها .

يقول (كافكا) الذي يعد أبا لذلك الاستلاب المعاصر : « يفصلني عن جميع الاشياء فراغ لا استطيع بلوغ نهاياته » وهو لا يشعر بذلك الانفصال ازاء الاشياء فحسب بل ازاء البشر أيضا ، فـ : « لا أحد هنا يستطيع أن يكون رفيقا للآخر » . ذلك لان هذيـــن الشكلين للانفصال يبدو أنهما مترابطان : فالبعد عن الاشياء مرتبط بالبعد عن البشر . ياله من نفي واقصاء ويا لها من وحدة وعزلة ! ذلك ما ردده (كامو) بعبارات فلسفية شيقة عملت على نشر الشعور بذلك الضياع وسط جمهور اصبح عنده معنى العبث مطابقا لمعنى الاستلاب(5) . وبهذا الاعتبار فان الاستلاب يشمل الانتاج الادبي المعاصر في معظمه ، فذلك الادب اصبح يعبر عن تمرد الطبقات والاجناس ، ويصف تأفف الانسان المنعزل ومأساة الفلاح والزنجي والمهاجر ، والحرمان من الارض والحاجة الى السعادة .. فليس مما يبعث على الدهشة ان ناشرا امريكيا (6) استطاع ان يضم تحت هذا العنوان 1300 صفحة من النصوص المختارة من انتاج أغلب الادباء

العالميين فى القرمين الاخيرين من (دوستيوفسكى) الى (بيكيت) مارا بـ (ميلفيل) و (بروسست) و (د· هـ· لورانس) ··

وكانت خطوة جديدة عندما تسلط علم الاجتماع الامريكى على تلك الكلمة ليعطيها أوسع معانيها : فـ « اصبح لفظ الاستلاب يعنى فى علم النفس وعلم الاجتماع الامريكيين ، استقلال واقعتين أو فئتين من الاشخاص وانفصالها عن بعضهما » كما اصبح يعنى « شعورا بالعبث وفقدان المعايير والانعزال والابتعاد عن الذات » (7) فيبدو أن الحلقة قد اكتملت هنا ، كما يبدو ان لفظ **الاستلاب** ، ذلك اللفظ السهل التكيف ، قد اصبح يعبر عن أزمة « عدم التواصل » فى امريكا لقد غدا الاستلاب قابلا لكل معنى ، فهو مرض العصر وغثيان اغنى مجتمعات العالم ، ولم تعد الثورة ولا التاريخ بقادرين على تقديم خدمات له ·· ذلك ما لم يخمنه (هيجل) وما لم يخطر ببال (ماركس) · ومع ذلك فهو يظل مرضا غامضا بلاشك ولكن يجب كشفه وعلاجه · ويظهر ان الاهتمام بارجاع الانسان الى ذاته وجمع شتات ماهيته المفككة ، مازال قائما بالرغم من أن فلاسفة التاريخ قد تناسوه · فحتى فى اكثر المجتمعات عداء للماركسية مازال الاستلاب قائما كأساس متقلب للنزعات الطوباوية المرفوضة ، وكانعكاس احمر للثورة الهامدة ·

ومع ذلك فما زالت هناك مرحلة بقى علينا اجتيازها : وهى ان نعتبر ذلك الاستلاب ، الذى لم يعد يدل الا على مأساة غامضة ، لا مرضا يجب علاجه ، بل حالة عادية للانسان المعاصر ، وفراغا لا جدوى من ادعاء ملئه ، بل من اللازم قياسه وتشكيله ليكون ملجأ الانسان ومرتقاه · ذلك ما تفعله **المدرسة الجديدة فى** الرواية والمسرحية · فهى تعتبر ذلك « العداء الاصلى للعالم » الذى يتحدث عنه (كامو) كمعطى جوهرى عند الانسان لا يجب المساومة فيه بل انها لا تعتبره حتى نوعا من العداء ، مادام الكلام عن عداء العالم

يضفي عليه معنى انسانيا • فالاشياء هي اشياء» وليست من الانسان في شيء » كما يلاحظ (روب ـ غريي) فيجب اذن « الا نسقط عليها انفسنا » • ان الشعور بالاستلاب يكتسح الحياة اليومية لـ « شخصيات » الرواية الجديدة ويغلف كل شيء وكل كلمة تفوه بها تلك الشخصيات التي لاتعرف معنى للصداقة او للماضي والتي فقدت شخصيتها واسمها والتي نستغرب كيف انها تحتفظ مع ذلك باجسامها • وحتى لفظ الاستلاب في هذه الرواية لا يستخدم بكيفية تجعله يضفي على العالم معنى انسانيا فلا يتعلق الامر الا بعالم خارج الانسان ليس في وسعه أن يضم حقدا أو يعد بالتصالح• انه عالم تحرم فيه العواطف (لا مشروعية لها فيه كما يقول جان كايرول) عالم يشعر فيه الانسان بان لغته قد خانته فيذبل في صحراء قاحلة ، انها قمة الاستلاب او ما اعتدنا ان نسميه كذلك • بقي علينا ان نعرف ما اذا كان وصف ذلك المنفى القاسي ، هو محاولة لاشعارنا بسلامة وضعية طالما زعم العقل والثورة مجاوزتها، او ما اذا كان جهدا بالغا للكشف عن فظاظة لا يمكن التعبير عنها ، ومحاولة لاعطاء تلك الفظاظة معنى انسانيا بحصرها في شبكة اللغة وتجسيدهافي العمل الفني 8) • فربما نجحت البرودة ازاء الغير في ابراز تلك المأساة ، حيث اخفق العنف والتهييج •

لقد احطنا بالموضوع من جميع جوانبه وأصبح ذلك الاستلاب الشامل يضم في حضنه آلامنا المعاصرة جميعها • ولم نعد نقدر على التنفس والكلام ، والمرح والحياة • ان هذه المدينة لم تعد مدينتي، وتلك الشوارع لم أعد أتعرف عليها ، وهؤلاء الاشخاص لم أعـد اتبينهم ! لقد حلت هندسة تقنية مكان المنظر الذى عهدته في صباى وعمرت المدينة انفس زائغة ، كنفس بطلة « الصحراء الحمراء » التي اخذت تقلق على ماضيها وهو يزول ويمحى • ان ذلك الاستلاب يعبر عن حزن ناتج عن حرمان • فهو لم يعد لحظة « الموضعة » لتي تمهد لاسترجاع الذات كما كان يرتئي (هيجل) ، بل اصبح

حنينا لاجدوى منه كما انه لم يعد يعاني في عملية الانتاج بقدر ما اصبح يعاش خارجه ، او على الاقل ، ان الثقافة المعاصرة تصفه لنا كذلك : كما لو أن معظم الناس قد الفوا الشعور بالحزن والقلق ازاء مسكنهم واوقات فراغهم . فجميع الاعراض السيئة في المجتمع تبدو الان كمظاهر لذلك الاستلاب الجوهري الذى يشمل الانتاج والاستهلاك ، والذى يظهر انه راجع لانفصام داخل المجتمع لايكفى نمط الانتاج لتفسيره ، ولتعاسة متغلغلة في الانسان ليس الاستغلال الاقتصادى الا مظهرا واحدا من بين مظاهرها المتعددة وليس هو اسوأ تلك المظاهر . فربما وجب ان ترجع الى (روسو) لا الى (ماركس) اذا ما أردنا أن نلتقي بالانسان الاكمل في حيويته وتفتحه ، ذلك الانسان الذى نشك اننا اصبحنا تشويها له . فحينئذ لا يكون ظهور الرأسمالية الا مسخا لتلك الهزة التي اصابت الحضارة الاوربية خلال القرن الثامن عشر . « في فجر الرومانسية والصناعة والامبراطوريات عزلت البرجوازية الناشئة التقنية عن الانسان والحساسية عن الابداع ، انها راسخة عند جميع الشعوب وفي جميع انحاء العالم ، تقسيما نجني نحن اليوم عواقبه السيئة » (9) ان هذه العبارات تلخص بكيفية جيدة محاولة (جاك بيرك) عندما اراد ربط مختلف انواع الاستلاب في هذا القرن ، باستلاب اساسى شامل له بداية تاريخية معروفة . لذلك الاستلاب سنوجه عنايتنا الآن . وهو يشكل ، الى جانب نظرية الاستلاب عند (ليفي - ستروس) ، احد الجهود التركيبية القليلة للاطلال على عصر لا يجد التعبير عنه الا في بحوث نقدية مشتقة وتخصصات اجتماعية مبعثرة .

- المحاولة التركيبية لـ (جاك - بيرك) :

أبرز (جاك بيرك) خطوط استلاب عميق يشمل ، بشكل جدلى ، المجتمعات الصناعية والمجتمعات المستعمرة (بفتح الميم) ،

وذلك عندما تأمل ظاهرة الاستعمار والتحرر من ربقته • ونحن نعرف الصعوبات التى واجهها الماركسيون عندما أرادوا ربط الاستعمار بفكرتهم الاساسية : فقد حاول (لينين) ان يضع نظرية عن الامبريالية كذبتها كثير من الوقائع(١٥) • « فضرورة تصدير الرساميل ، قد انعدمت نتيجة لتقدم النظام الرأسمالى فى البلدان المصنعة وظهر أنه من المصلحة الاقتصادية للدول المستعمرة (بكسر الميم) أن تهاجر مستعمراتها بدل أن تظل مقيمة بها(١١) • كما ان التحرر من ربقة الاستعمار قد تم بكيفية لم تتفق التكهنات الماركسية • وبدل أن يسعى (جاك بيرك) ، لربط تلك الظاهرة بالماركسية النظرية ، فانه (كباحث انتربولوجى وكشاعر) أخذ المفاهيم الماركسية - وخصوصا مفهوم الاستلاب - تأويلا وعمقا جديدين ، على ضوء التجربة التاريخية « ان الاستلاب الماركسى وما اوضحه من مفاهيم ، يجد ميدان تطبيقه فى ظاهرة التحرر من ربقة الاستعمار • فالتحرر قد انكشف عن الاستلاب والتشيء وضياع الانسان الذى يغتصب فى عمله ، بل قبل كل شيء يغتصب فى شخصيته وثقافته ولغته ، ويصبح غائبا عن أرضه وعمله ، اذا صح التعبير ، غريبا فى موطنه : انه فقدان للشخصية وحرمان مادى ومعنوى •• ولكن ذلك الاستلاب ينعكس على اولائك الذين عملوا على نشره ٥ فكأن الاستعمار قد كشف لنا ، نحن الغربيين ، عن حقيقتنا • فيظهر ان أزمة المجتمعات الصناعية ، انما هى الواجهة الخلقية للشقاء الذى كبدناه للشعوب المحرومة • لقد اعتقدنا ، نحن الغربيين ، اننا سننسى انفسنا ومشاكلنا اذا ما قلبنا الارض رأسا على عقب وها نحن نلقى انفسنا فى عزلتنا وعقمنا ، مفتقرين الى ما حطمناه عند الآخرين ، مفصولين عن مصيرنا ساعين الى الانتقام بأن ننقل تأففنا من التاريخ الى الشعوب المقهورة ••

وهكذا يكشف الاستعمار والتحرر من ربقته حقيقة الاستلاب من خلال الرؤية الماركسية • الاستلاب هنا انفصال انطولوجى وتصدع

نفسانى بين الطبيعة والمجتمع ، بين التقنية والانسان ، بين العقل والحساسية • كان (ماركس) يربط الاستلاب بالوظيفة المنتجة عند الانسان ، ولكن الاستلاب قد بلغ مداه عند فئات لم تكن من المنتجين ، فحرمها عاداتها وتاريخها ووجودها الثقافى : انه حرمها طبيعتها • لقد رميت تلك الفئات فى عالم من الاشياء والمعانى كان غريبا عنها ، وامتدت تلك الغربة الى ما بعد الاستقلال • لان التقنية، وسيلة انعاش تلك الفئات ، قد حملت لها عن طريق الاجانب ، كما انها تنتمى لتاريخ كانت هى بعيدة عنه لمدة طويلة لذا يصعب على تلك الفئات ان تبنى مستقبلها لانها منفصلة عن ماضيها ، غائبة عن حاضرها • ولكن ، يتخلى ذلك الشعور بالضياع والتشكك ويهزه « تمرد السكان الاصليين » وانتقام « المنبوذين المظلومين » وذلك الفرح الراقص الذى شاهدته الجزائر يوم 5 من يوليوز سنة 1962 : انها ارهاصات « امتلاء انتر بلوجى plénitude authropologique على المستعمرين والمستعمرين السعى وراءه •

نستطيع ان نتبين بلمحة بصر ، عن طريق هذه الاطلالة التى اتاحها لنا (جاك بيرك) الهزات الكبرى للتاريخ الحديث والايديولوجيات التى غلفتها : كالثورة الشيوعية وثورات التحرر الوطنى والثورة الفاشية ـ رغم ان (بيرك) لا يتكلم عنها ـ وذلك لا يعنى اننا نريد ان نضم الفاشية والشيوعية تحت اسم مشترك هو الاستبدادية ، بل نريد ان نعود لتلك النقطة التى نفهم عندها وحدة الثوارت فى القرن العشرين مهما كانت طرقها ووسائلها ومهما كان فضلها • فهناك وراء « الثورات » الفاشية ، الى جانب الازمة الاقتصادية والاهانة الوطنية ، حاجة الى التآخى والتجاوب وتمرد لاصحاب تلك الثورات ضد التجريد الديمقراطى ورغبة فيما هو أساسى (ما كان (دريبو لاروشيل) يسميه فى رواية جيل البحث عن القيمة الذهبية السابقة لكل استلاب) • ان التحليلات اعتادت أن تهمل القوى الوجدانية ، وتعطينا عن تاريخنا صورة

مجردة لا تسود فيها الا التغيرات الاقتصادية والجدل العقلي ، كما لو كان قلب البشر الذين يساهمون في تلك الثورات والحروب لا يخفق حبا او غضبا أو حقدا ·

ان المبالغة في الرومانسية العنصرية والفاشية قد اهملت القوة الوجدانية عند الانسان · ولم يعد علم النفس يجرؤ على أن يقول كلمته حول الموضوعات التي يطرقها علم الاجتماع والاقتصاد السياسي · ويرجع الفضل الى (بيرك) الذي اعاد لهذه القوة الوجدانية مكانتها في تحليل شامل جعل العقل يساوق الشعور ، الذي يرمي بنا في قلب منطقة أعمق من الايديولوجية ، منطقة يحيى فيها الانسان الطبيعي (وهو انسان من طين واعصاب وقلب) الذي يقلب تمرده مقولاتنا الجافة ·

يتبع

★ استعملت لفظ استلاب دون الالفاظ العربية التي تؤخذ عادة كمقابل لـ aliénation (كانخلاع وحرمان وتشيء وضياع وتشويه والينة واغتراب) باعتبار ان كلمة استلاب اصبحت تفرض نفسها ، اكثر من الالفاظ الاخرى ، على الاقلام العربية .

(1) كوستاس بيبوانو : « ماركس وانتقاد الاستلاب » مقالة .

(2) وخصوصا ، التيار الفكري الذي يستوحي افكاره من كتاب (لوكاش) : « التاريخ والوعي الطبقي » .

(3) لويس التوسير : « الماركسية والنزعة الانسانية » مقالة .

(4) هانه ارانت : وضعية الانسان المعاصر .

(5) طلبت مرة من طلبة امريكيين تعريف الاستلاب . وذلك طبعا ليس بالسهل . ولكن هؤلاء الطلبة اجابوا مشبهين الاستلاب بما يسميه كامو الشعور بالعبث .

6 الاستلاب في مقدمة هذا الكتاب وهو يصفه بأنه ابهام وغموض .

(7) بيير رول : « الاستلاب وقياسه من خلال بحث سسيلوجي في المعامل الصناعية بايطاليا » .

(8) ج. م. دوميناك « احياء المأساة » مقالة .

(9) جاك بيرك : الحرمان من العالم .

(10) فريتز ستونبرغ : صراع القرن .

(11) جون ستراشي : اليقظة الكبرى .

عبد الرزاق الدواى

ماهية الانسان فى التحليل الماركسى للاستلاب

من المفاهيم التي يستعصى فهمها في التحليل الماركسي للاستلاب الانساني طبيعة وماهية الانسان الذي يستلب • اذا كان الاستلاب هو اغتراب قسري عن الانتاج وعن الذات وعن العالم وفقد لكل علاقة مع الطبيعة الاصلية للانسان ، فهل يعني هذا ان الانسان قبل ان يعاني الاستلاب بكل أشكاله كانت له ماهية مسبقة وطبيعة اولى شكلت حقيقته ؟

هل يعني الاستلاب فقد لماهية ما وابتعاد عن طبيعة ما للانسان ؟ الجواب الماركسي عن هذا السؤال واضح ولا يثير أدنى غموض في حد ذاته ؛ بالنسبة لماركس لم يوجد لحد الآن انسان غير مستلب حتى يعتبر مقياسا للانسان المستلب ، اى لم توجد قبل مرحلة الاستلاب حقيقة عليا للانسان ستسترجع عندما يخلع الانسان عنه كل ضروب الاستلاب • كتب ماركس :

« ليس من الممكن الرجوع الى حالة اصيلة للانسان دون الوقوع في الادعاء ، ان الامر لا يمكن ان يتعلق بماهية انسانية محددة قبليا ، ولا بمثال مفقود يجب البحث عنه » (1) •

اذن ، مما لاشك فيه ، ان الماركسية ليست فلسفة ماهوية Essentialisme ولا توجد عند ماركس فكرة مسبقة عن

ماهية للانسان يمكن ان تحدد قبليا حتى قبل وجوده • ان فكرة ماركس الرئيسية بصدد هذه القضية هي أن هناك كثيرا من المواقف خلال التاريخ جعلت الانسان يضيع ويغترب عن نفسه ، وهذه المواقف الاستلابية وقضاء الانسان التدريجي على هذه المواقف الاستلابية سيجعله يتحقق شيئا فشيئا •• ويحقق انسانيته لاول مرة •

ومع ذلك فان الحاحات التفكير تتطلب ان تكون هناك صورة ما لهذه الماهية التي سيحققها الانسان لاول مرة • وهذه الالحاحات هي التي دفعت ماركس ، خاصة في مؤلفاته الفلسفية ـ الاقتصادية الاولى ، الى أن يحاول تحديدا لابعاد حقيقة الانسان الكلي الذي هو هدف المجتمع الشيوعي ، وذلك من خلال التاريخ والممارسة والواقع •

عندما طرح ماركس مشكل تحرير الانسان في كتابيه «القضية اليهودية» (2) (ومدخل الى نقد فلسفة الحقوق عن هجل)(3) فقد كان يرجع الى انسان واقعي لا الى ماهية مسبقة •

وفي « مخطوطات 1844 » بذل مجهودا لتوضيح مأساة الانسان المستلب في افق اقتصادي واجتماعي وتاريخي • وفي اطار هذا المجهود نلاحظ ان ماركس اهتم ضمنيا بتحديد سلبي لماهية الانسان ولكن بدون ان يعطي تعريفا ايجابيا معينا يمكن الرجوع اليه •

ومهما كان هذا التحديد سلبيا (الانسان في الاوضاع الاستغلالية والاستلابية يعتبر نفيا للانسان الحقيقي) يمكن ان نستخلص منه على الاقل بعدين أساسين في تحديد ماهية الانسان:

ـ الانسان كائن طبيعي مباشرة واجتماعي •

ـ الانسان يخضع للصيرورة التاريخية ٠

ونتادى من هذين البعدين الى ان الانسان يتحقق خلال التاريخ ٠ لقد استعار ماركس قولة هجيل « الانسان ينتج نفسه بنفسه » ولكنه حول استعمالها الى المجال الواقعى ،

وهنا تبرز أصالة فكرة ماركس عن الانسان : ان الانسان عندما ينتج نفسه عبر التاريخ فهو ينتج حقيقته وطبيعته الواقعية (لا حقيقته وماهيته الروحية الفكرية كما هو الامر عند هيجل) ٠

ان التاريخ كله لم يكن سوى صراع بين الطبقات (الجدل القائم بين الاستلاب والوعى بالاستلاب وتجاوز الاستلاب) ٠٠ وهذا هو التحديد السلبى لماهية الانسان ٠ وقد توصل اليه ماركس من خلال تحليله للاقتصاد السياسى وللتاريخ ٠

ان نتائج تحليل الاقتصاد السياسى تظهر استلاب الانسان فى عملية الانتاج فى ابعاده الثلاثة :

ـ فى عملية الانتاج يستلب انتاج العامل ويصبح العامل يواجه انتاجه كما لو كان قوة مستقلة عنه او شيئا غريبا عنه بحيث « كلما ازداد انتاج العامل للاشياء كلما قلت امكانية امتلاكه لها وازداد خضوعه لانتاجه »(4) ٠

ـ فى عملية الانتاج يستلب العمل الانسانى نفسه كفعالية حيوية ، فالعامل يعمل وكأن فعاليته ليست حرة بل هى فعالية يتصرف فيها الآخر ٠ انه يعمل وكأنه يقوم بشىء مفروض عليه ، بشىء خارج عن طبيعته « ان شعور العامل بقربه من نفسه لا يتحقق الا خارج العمل ٠٠ اما خلال العمل فهو يحس بالاغتراب عن نفسه» (5) ٠

ـ فى عملية الانتاج تستلب صفة الانسان من العمل وتصبح غريبة عنه ، وتتحول فعالية الانسان الى مجرد وسيلة للحفاظ على على الحد الادنى من الحياة ، الى حد ان «الانسان باعتباره كائنا واعيا لا يجعل من فعاليته الحيوية ، أى من ماهيته ، سوى وسيلة لوجوده .» (6)

اذا كانت هذه النتائج لتحليل الاقتصاد السياسى لم تصل الى تقرير حقيقة مطلقة لماهية الانسان ، فقد انتهت على الاقل الى التأكيد بأن هذه الحقيقة لم توجد الى حد الان الا مستلبة وهى فى وضعية العامل البئيسة فى نظام الانتاج الرأسمالى توجد مسلوبة من كل صفة انسانية .

ان حقيقة الانسان فى سائر الاحوال لا يمكن ان تعبر عنها وضعية العامل الحالية ، بل ان النفى الجذرى لهذه الوضعية هو وحده الذى يمكن ان يعبر عنها .

وتحليل ماركس للتاريخ يكشف ان طبيعة الانسان تخلق فى التاريخ من خلال العمل والنمو الجدلى للتناقضات الموجودة فى صفاته .. فهى اذن من انتاج التاريخ الطبيعى للانسان .

ـ فالانسان يستلب اولا فى صراعه مع الطبيعة التى هى مادة عمله ، ولكنه بهذا الاستلاب نفسه ومحاولة تجاوزه يتمكن من السيطرة على هذه الطبيعة .

ـ ثم يستلب الانسان فى علاقته بالآخر عندما لا يرى فيه ممثلا للنوع البشرى بل فردا منافسا وعدوا ، ولكنه بهذا الاستلاب يخلق شروط المجتمع البشرى .

– ثم يستلب فى عملية الانتاج حيث يقضى على حياته الخاصة كانسان لكى يحافظ على بقاء حياته العضوية .

ثم يصل بعد ذلك الى درجة من النضج لا يمكن ان يتبعها سوى تحقيقه لصفاته الانسانية لاول مرة .

هكذا يمر الاستلاب بعدة مراحل لكل واحدة منها جانبها الايجابى وجانبها السلبى وتعد كلها ضرورية .. كلما تصور التناقضات الصميمة فى الطبيعة الانسانية التى تزدهر وتحل فى تحقق الانسان داخل المجتمع الشيوعى .

هذا التحقق سيكون تحقيقا للانسان لأول مرة بعد القضاء على العوامل المولدة للاستلاب لا استرجاعا لماهية أولى ، اذ الاستلاب ليس ناتجا عن خطيئة اولى فقد الانسان بعدها ماهيته .

ان من بين الابعاد المختلفة للاستلاب .. يوجد الاستلاب الانسانى ، استلاب الوجود الانسانى ، استلاب الانسان الذى اصبح كل الوجود وحتى وجوده الخاص اشياء غريبة بالنسبة اليه.

ما هو اذن العمل الذى يحقق الوجود الانسانى ؟

لا يجب ان ننتظر جوابا نهائيا عن هذا السؤال .

ماركس يقول بان طبيعة الانسان تتحقق عندما تلغى كل الظروف المولدة للاستلاب ، ومن أهم عوامل ظهور الاستلاب نشوء الملكية الفردية .. لذا فان الغاء الملكية الفردية يعد الشرط الضرورى والاساسى لكى يجد الانسان الوجود الحقيقى لاول مرة .

ان النزعة الانسانية عند ماركس لا تدعو الانسان لان يخلع عنه الاستلاب لكى يسترجع من جديد ماهية ما ، ولكن لكى يحقق هذه الماهية لاول مرة •

---

(1) مقدمة مخطوطات 1884 ، النص الفرنسى الصادر فى المطبوعات الاجتماعية سنة 1969 بباريس .

(2) صدر على شكل مقال فى العدد الاول من الحوليات الفرنسية ـ الالمانية سنة 1883 بباريس .

(3) صدر سنة 1844 .

(4) المخطوطات الفلسفية ـ الاقتصادية (1844) ، النص الفرنسى ص 57 .

(5) نفس المصدر ص 60

(6) نفس المصدر ص 63 .

المحاولة

- عمورية

.. وفوجىء من لظى الاصوات
جنود الـــروم
وأيـن تـــروم ؟
فقد سدت هنا الساحـات
وما عادت تتردد غير آهـات
بـــلا ترنيـــم
فيا سكان عموريـــة
دعـوا الاقداح أمنيـة
قد انقرضت سنين القحط والتظليم
وردها أبــو تمـام
يقص حكاية التنجيـم
على بهـو « الاسود » ترددت طلقـــات
تطايرت الشظايا في المدى النشوان
وذابت في الصدى حفـلات
« الى الغابـات »
واقفرت المواقع من خطى الاقدام
ومنــذ الآن ..

- تعقيب

كان الضباب .
واربدت الآفـاق من وقع الجياد
واهتزت الجدران ، والاشخاص قد سفوا الرماد !

كوليرا

سقط الاطفال قتلى بالدزينة
« فالكوليرا قد غزت كل المدينه
وبصدر الطفل اشياء قديمه
كان خيطـا وتميمه
نظرات الشخص في البيضاء
رزينـــه
وبباب الدرب أنات حزينـه
وتهـاوت أعمـده
كالجذور المجهـــده
ذكريات العام كم كانت أليمـه
فالكوليرا تأكل الاشخاص والاشياء،
في قلب المدينـــه !

الشعر من وجهة نظر سياسية

عبد القادر الشاوى

مـــدخـــل

اهتديت الى البحث فى هذا الموضوع فى بداية شهر يناير 1972 ، بعد فترة من الدراسة ، حرصت على أن أقدم خلالها لتلاميذ السنة الاولى من الثانوى ، قصائد مختلفة من الشعر الحر ، فى مضامين تتراوح بين : فلسطين ـ والوحدة العربية ـ والاستعمار ـ والحرية ـ والوطن ـ وبعض المشاكل الوطنية ـ للشعراء : محمد القيسى ـ نزار قباني ـ محمود درويش توفيق زياد ـ نازك الملائكة ـ سميح القاسم ـ عبد الوهاب البياتي ـ فدوى طوقان ـ احمد هناوى، مصطفى المعداوى ٠٠ وكان الغرض طبعا أن أنقل التلاميذ ، مع مراعاة مستواهم العقلى والثقافى ، الى ارضية أخرى من الادب العربى، فى اطار ملتزم بالمفهوم الواسع على مستوى الابداع الشعرى ، خلافا لتجربة المنهج ٠

وفى أواسط شهر مارس اقترحت على التلاميذ استفتاء داخل القسم ، فيما اذا كانوا يرغبون قراءة هذا النوع من الشعر ، عن طريق وضع أجوبة صريحة مع اغفال ذكر الاسم للتأكد من صحة التجربة ٠ وكانت النتيجة ، أن جل التلاميذ يرغبون فى ذلك ، أو يقبلون على هذا النوع من الدراسة لاسباب مختلفة ٠

واليقين أن هذه التجربة ـ على مستوى الشعر الحر ـ أوحت الى التلاميذ بكثير من الاشياء ، استنادا الى مركزهم الاجتماعي ، ووضعهم الطبقي ، كانوا في حاجة الى معرفتها ، أو التأكد من صحتها أو الى تقليدها والنسج على شاكلتها • بدليل انني عندما طلبت الى التلاميذ الشعر ، دون التقيد بالوزن ، ودون التزامهم بمواضيع محددة ومسبقة ، كانت الاشعار تقترب من المضامين التي ذكرتها سابقا ، لاعتبارات ثلاثة :

1 ـ ان التلاميذ يشعرون بانتماء حقيقي في وضعهم الطبقي المرزى ، الى فلسطين مثلا ، اكثر من أي شيء آخر • لهذا جاءت جل القصائد تعبيرا عن هذا الانتماء الشعوري الصرف •

2 ـ ان وضعهم الطبقي الذي ينحدرون منه ـ جد فقير ـ يملي عليهم ، تحديا أو طوعا ، اختيار نوعية التفكير الذي سيقبلون عليه • ومتى كان هذا التفكير مشروطا بضمانات التغيير ، والمساواة ، والحرية ، كانوا أكثر التصاقا به من غيره •

3 ـ ان الانتماء الحقيقي الى الفكر السليم ، لا يمكن ان يحدده الا الانتماء الطبقي الجذري •

ان اختياري لموضوع الشعر في هذه (التجربة) يأتي مس ايماني بأن الموهبة موجودة اساسا ، ولكنها لا يمكن أن تتفتح الا على ما هو واضح ومفهوم • لهذا كان الشعر من ابسط «الموضوعات» التي يمكن للتلاميذ أن يقفوا على تقنياتها : في طريقة رسم الابيات اذا صح التعبير ، ونقل شكلها بطريقة تعبيرية حرة ، خاصة وأن شعر تجربة التلاميذ في المستوى الذي أقدمه ، خال من الوزن ، ولكنه فيما عدا ذلك ينطلق من أفكار محددة ، تدور كلها حول الحرية ، والاستقلال والتطور ، والثورة •• وكان الغرض بعيدا عن الوزن والقافية ، والصورة والاسلوب الشعري ، البحث عن المضامين الاجتماعية والسياسية في المستوى الذي يوحي به شعر

التلاميذ فى سن تتراوح ما بين (11 و 15) ومعنى هذا أن (اسطورة) السياسة لا يمكن أن تبقى حبيسة المجالس ، والمكاتب ، والهيئات والتجمعات الفوقية ، ولابد وأن يتشرب التلاميذ ـ كفئة غير متجانسة الانتماء ـ نصيبهم منها تعبيرا عن حضورهم الهام ، فى بناء مجتمعنا المغربى ، حضورا واعيا •

والحال ، أن هذا الشعر ، بشكله ومضمونه ـ عبارة عن تجربة جماعية اقرب الى البحث عن الخلاص بمعناه النضالى ، من وضع اقتصادى واجتماعى متخلف • ويمكن أن أسجل أن «أفكاره» العالية ، التى يطرحها ـ ليست وليدة تجربة دراسية فقط ، وانما هى وليدة معاناة ثالوثية :

البيت ، والمجتمع ، والمدرسة •

القضيــة : فلسطــين + الثــورة

« يـا قــدس
ايـن الابطـال ؟
أيـن الثــوار ؟
أين الفدائى ورجولته ؟
أين العربى الابى وشهامته ؟
يـا قــدس
ايــن هـؤلاء ؟
هـؤلاء الثــوار الابطال
ليطردوا العدو من أرضك الطيبة »

من هذا المنطلق يطرح التلميذ (عوان مصطفى) جملة من الاراء: مفهوم البطل فى الثورة الفلسطينية ، العدو الصهيونى ، مسالة الارض والنضال فى سبيل الحرية • هذه الاراء فى مستواها العام، تكشف عن خلفية اساسية : الاعتزاز « بالقضية » ، باعتبارها قضية

وطنية ، يحس التلميذ ازاءها بشعور حاد ، متوتر • ويأتي التعبير عن ذلك ، بصورة مباشرة فيالتساؤلات التى وردت أعلاه • يمكن أن نتصور ، أن التلميذ لا يدركبوضوح معنى الثورة الفلسطينية بمفهوم ما ، ولكن حضور الفكرة ، يكشف عن « وعى جنينى » (على حد تعبير لينين) يمكن أن يتطور • والدلالة فى الافكار المعتقدة ليس غير • القدس من وجهة نظر التلميذ هي الارض الموعودة ، المحتلة ، وهبة الثوار تكمن فى استردادها « ببسالة وشجاعة » :

« يـا قـــدس
لو كنت هناك لفديت عمرى
نعم ، لفديته من أجلـك
يـا قـــدس
أنـت روحـى
أنـت حياتـى •• »

القدس كرمز لخلاص ذاتى ، القدس الامل • من الملاحظ أن الفكرة التى يطرحها التلميذ ترتبط بوضعه الطبقى • فالتعبير عن « فداء القدس » بالروح والحياة كما أفهم ، فداء الحياة فى أسفـل السلم المجتمعى • معاشة بصبر وألم معا • والقيمة السياسية فى المعاناة الصميمة المعبر عنها (يقول مصطفى عوان) :

« قدس كلمة أعرفها منذ شبابى
قدس كلمة كم أحلاها فى فمى
يـا قـــدس
اصبحت فى هذا الزمن •
كنيسة لا قدس أمـــان » •

التجربة الشعرية فى هـذا المسـتوى تسجـل مـوقفيـن :

1) احساس التلميذ بمعنى القدس ، كرمز لفلسطين (السلبية) ·
2) ضرورة انقاذها بطريقة ما ، كتعبير أشمل عن قضية تتطلب المواجهة والتحدى · الاستعداد الذى يبديه للتضحية ، هو المقابل الموضوعى لوضع آخر يتطلبها ، فى المرحلة الراهنة · وهذا الوعى فى حد ذاته ، ضمانة لاستمرار القضية فى وجدان التلميذ وشعوره·

التلميذ (ابراهيم عاصف) من زاوية أخرى يلتقى (بعوان) فى قيمة الرؤية السياسية : لانها التعبير الحقيقى عن الاهتمامات الجماعية التى تشغلهم فى وضع محدد · ولان فلسطين كما رأينا هى الامل فى قصيدة (الى القدس) ، فان « القضية » العربية بصفة عامة ، هى ما تشغل (عاصف) ·

المنطلق يختلف ، ولكنه يعلن عن وحدته فى الهدف المستقبلى الذى يطمحان الى استشراقه · (عاصف) فى قصيدته (أمينة العرب) يخلص الى بعض النتائج : تحقيق المستقبل عبر النضال الثورى ، محو آثار الاستعمار ، التقدم الاقتصادى ، القضاء على التخلف ، تحرير فلسطين ·

« لنحقق مستقبل الابناء
ولنمحوا آثار الاستعمار
الاستعمار الذى خيم على ارضنا
يا رجال الغد انهضوا
وللازدهار صوتوا
فما علينا الا ان نتدرب
ووراء التقدم نذهب » ·

افكار عامة ، لكن فى المستوى الذى توحى به تستحق التسجيل من حيث هى اهتمامات تلميذ يعيش العصر الثورى ، بصدق وفق

تصوره له ، وايمانه بتغييره ، ومعنى هذا أن الاهتمامات يمكن أن تتحول الى تعبير نضالى بكل تحديد لطبيعتها الصادقة ، ومدلولها السيـاسى ٠

في قصيدة (كلنا فدائيون) للتلميذ (عبد الجليل دالى) يشمر الايمان المطلق بتحرير فلسطين ، وعيا مركبا : فى شكله الظاهرى لا يمكن أن يكون الا الايمان بالثورة ، والقوة ، والفدائي ٠ ولكنه في عمقه يتحول الى وعى بالذات فى طريقة استيعابها لمضمـــون هذه المواصفات ٠ ولايمكن أن نتكلم عن الطموح هنا الا من حيث انه معايشة ، او معاناة ٠ يقول :

« فلسطيـن
يا شعار كل عربى
حلم كل فدائـى ٠٠
كلنا فدائيون
ننتظر فرصة
ننتظر موعـد
ننتظـر وقـت
نجتمع فيه على ثراك الطاهر
الناصع فى الظلام »

من ناحية الصورة الشعرية ، يبدو الكلام متزنا فيه ايحـاء « يا حلم كل فدائي ـ كلنا فدائيون » ، وفيه اشعاع « فلسطين ـ يا نور افريقيا » ٠ وهذا ادراك سليم لمعنى الثورة الفلسطينية فى الوقت الراهن ، ينبع من اهتمام مركز ، ووعى حاد ٠ الادراك الآخر يأتى على لسان التلميذ (حميد الديبة) فى قصيدته (تحية من المغرب الى المشرق) ٠ يمهد للقصيدة بقوله « من بلادى المغرب العزيز ، من مدينتى البيضاء المفضلة » :

«اكتــب لكــم
مــع تحيــاتى
مـــع اشواقى
يا أشبال طولكرم
وأبطال غزة الميامين ٠
وليوث القدس ارضنا
سيروا وجددوا فى المسيرة خطاكم
وليكن المدفع الرشاش ، والموت المشرق
والمجد والايمان القوى
وتحرير الارض المحتلة غايتكم
سيروا فى دربكم المنشود
فى عزمكم المعهــود ٠٠
خذوا طريقكم نحو الكفاح
ضــد العـــدو
ضد المستعمر الغاشم » ٠

(الديبة) يعى جيدا ما معنى أن يسير الثوار من أجل التحرير فداء للارض والشرف ، وما معنى أن يكافحوا ضد العدو المحتل الغاشم ، فى التذييل الذى كتبه لقصيدته بقوله : « هذه رسالة ارسلتها الى اخوانى الفلسطينيين الذين يحاربون عدوا شرسا من أجل استرداد كرامتهم المنزوعة ٠ وقد حملتها سلامى وتحياتى اليهم ، كما اننى الححت عليهم فى الصمود فى وجه العدو الصهيونى ، مهما كانت قوته السلاحية وبالرغم من أنه يعتمد على الامبريالية الامريكية » ٠

وربما كان هذا الكلام ذا دلالات متعددة ، من حيث انه يكشف عن وعى ثالث بقضية عادلة ، هى القضية التى نصب نفسه مدافعا عنها ٠ والواقع أن التلميذ (حميد الديبة 15 سنة) يكشف عن موهبة

« فكرية » أصيلة لم تجد طريقها الى النور ، بعد • وهذا سر بروزه الوحيد ، كتلميذ واع بمجمل القضايا : سياسيا وفكريا ونضاليا •

التلميذ (عبد الكبير أبو عمران) يقترب من هـذا المستوى الى حد ما فى قصيدة له بعنوان (زيارة مفاجئة) • القضية واحدة (فلسطين) ولكن عبر فهمه الخاص لها ينتهى الى نتيجة اساسية يذكرها بقوله :

« وأنتم يا قادتنا الجمال
اتركـوا الكلام
فلتأمروا بالقتـال
لنسترجع الآمـال
لنبعـد العـار
ونساعد اخواننا الثوار • »

لغة خطابية ، ولكنها تعبر فى العمق عن فكرة ، يعيشها فى الاحداث اليومية • التلميذ يصل الى حد يخاطب فيه القادة « بالجمال » لاقتناعه بأن فلسطين لا يتقرر تحريرها قولا ، كما يحدث فى الوقت الراهن ، القتال وحده يحدد أمرين : (أ) استرجاع الآمـال • (ب) مساعدة الثوار • يتابع التلميذ قوله :

« يا قادتنـا
أغريتم ، فتكاسلتم ، ونمتم
فمتى تنزل لطمة على وجوهكم
لتفيقوا من غفلتكم ••
« غدرتمونـا
لما تركتم أمرنـا
ودنستم شرفنا

وانزلتم العـار بنا
« عمان » تتوجـع
والحكام يختنقـون
فيشردون ويكبلون
اخواننا الثـوار » ٠

التهمة واردة فى هذا المقطع على لسان تلميذ تكاشفه الاحداث فيحدد موقفه منها ، اتهاما ورفضا ٠ واعتقد أن هذا مطلق الوعى بالنسبة اليه ٠ الموقف واضح ، ولايحتمل أى تفسير آخر ٠ وربما فطن الى أن اتهامه فى عمقه ، يوجه الى « طبقة » ٠ الطبقة التى فشلت تاريخيا على مستوى القيادة السياسية والاقتصادية والاجتماعيه فى انجاز برنامج تحررى وطنى ٠ بقيادة الجماهيـر الى النصـر التاريخى ٠ بدليل قوله ٠

« ستاتينـا فتــرة
أيهـا المجنـون ٠
فنملـك امرنـا ٠
نعم : نحن الفقراء العرب
ولن ننساكم يا جبناء » ٠

اليقين الآخر ، أن التلميذ يتكلم بلسان « الفقراء العرب » ومن موقف رفضهم لكل ما هو سلبى فى حياة الامة العربية ، لهذا يضطر عادة الى « تأجيل وعيده » ٠ وهذا قدره ٠ الشىء الآخر أن التلميذ فى تجربته « يفلسف » الحدث بمعناها ، فيعطيه ابعادا مستجدة ، بحسب قدرته على الابداع ، من حيث أنه يتصور أن « الحكام » بهذا المعنى ، هم الذين أضاعوا فلسطين وأن المصير الذى ينتظرهم ، لن يكون دون مستوى اخلالهم بالقضيـة ٠ كـل هـذا وفق منطق « ثورى جنينى » اذا اردنا أن ندقق العبارة ٠

اذ ان مشروع تفكيره يتجاوز الاحداث الراهنة ، الى مستوى البحث عن أفق لها ، والدلالة في اغناء مفهومه الفكرى اتجاه هذا المشروع ذاته واعطائه محتوى تقدميا صادقا • ما اقصد أن أوضحه هو أن التجربة اليومية المعاشة تتحول الى ايمان شخصى بكل ما هو ايجابى ، ولن يكون الا في الاطار الملموس •

تجربة أخرى تحت عنوان (التحرير للتلميذ مصطفى الغايه) تعلن فهما آخر لقضية فلسطين من زاوية الاهتمام المباشر • الشعور الشخصي بتسلسل الاحداث هو الذى يفرض الحل ، وهو ما يعبر عنه التلميذ بالتحرير • وتركيز الهدف فى هذا المستوى هو الرد الملموس على التخاذل ، على النكوص • وكل ما يحسه التلميذ لا يمكن ان يكون الا انعكاسا دقيقا لماهو واقع في نطاق ممارسته اليومية ، واهتمامه • ومن هنا يمكن أن نقول أن كل انتماء حقيقي لابد وأن يفرز اسلوبه الحقيقى فى المواجهة حتما • يقول التلميذ :

« دربـى •• دربـى
بـلادى اسـمى
اسمى ، عنوانى ، فلسطينى
النضال أمـل البنـاء
امل الثورة والهنـاء »

ما أقصده هو المستوى الجيد ، الذى تنم عنـه « أشعار » التلاميذ ، فى اطار واضح ، وفكر سليم • كلمـات : الثـورة ، النضال ، فلسطين ، الامل ، الهناء •• الآلات واقعية ، يفرضهـا الموضوع • ليست رموزا ايحائية حتى يتم تفسيرها بطريقة أو بأخرى ، بل لطبيعتها « التشخيصية » تحدد مفهومها مسبقـا • حقيقة ان كلمة « الثورة » مثلا ، فى اطار شعرى هى اكبر من أن تفسر ، ولكن عندما تفرض وجودها من موقع ، يمكن أن نراهن على

ثباته وجذريته ، يتحتم أن نتعامل معها « كحالة » موضوعية • وهكذا تصبح الثورة ، المعادل الموضوعي للفعل ـ الممارسة • والنضال ـ الهبة ، والتضحية ، وفلسطين ـ الهدف •• للتأكيد يقول (مصطفى الغاية) :

« أنا المدفع
وحق النصر على حق
أنا للعدو كمين
أنا للعلو ألغام
هيا بنا نحمل السلاح يا رفاق ،
لتكون ثورة ، ثورة شعبي
ثورة على المحتل
أوصيكم بالثورة الثورة •
لان فلسطين هي حبي الكبير »

يمكن أن نلاحظ أن « تجارب » التلاميذ في موضوع فلسطين تتفاوت ، تبعا لتفاوت فهمهم لها ، ووعيهم بها • ولكن ذلك لا يلغي الايمان « المبدأ » بأن فلسطين هي « الوطن » الذي يجب أن نتحمل تبعة تحريره كلنا • هناك فهم حقيقي كما رأينا لطبيعة الاستعمار الصهيوني الامبريالي على حد تعبير التلميذ (الديبة) ، ومسألة التحرير لا يمكن أن تتم الا بنضال شاق وطويل (اى بحرب تحرير شعبية) • ومعنى هذا أيضا أن النضال ـ التحرير ، هوه القاسم المشترك الذي يجب ان نتهيأ لتحقيقه بأساليبنا وممكناتنا ، اعتمادا على الجماهير صاحبة المصلحة في التغيير الملموس (الفقراء العرب على حد تعبير التلميذ عبد الكبير ابو عمران) •

خلاصات :

يمكن ان تشكل هذه القصائد على المستوى السياسي ، منظومة من الافكار المعتقدية ، لا سبيل الى فهمها ، الا عن طريق البحث عن

خلفياتها الاجتماعية والاقتصادية • وهذه مسالة جد مهمة فى اعتقادى الشخصى • ان كل تعبير فكرى ، هو انعكاس متحـرك لمستـوى طبقي معين • ومتى كان الانتماء الطبقي جذريا ، كان التعبير الفكرى ذا دلالات موضوعية ـ تاريخية • ان اهمية « الفعل » مـن واقـع تجربتهم داخل المجتمع ، وبالتحديد فى سلم تركيبهم الطبقي : فيها الرفض لما هو قائم ، على اعتباره منخورا ، والتحدى لما هو جاهز باعتباره لا يشملهم •

فلسطين تغطي حلقة واحدة من مجمل اهتمامهم ، لذا وجدنا التعبير فى هذه القصائد عنها ، مقرونا باضافات خصوصية ، تتسع لتأويلات مختلفة ، ودائما تنتهى عند خط هو الوعى ذاته منظورا اليه من زاوية البحث عن نهاية اكيدة ومعقولة • هنا يمكن أن نطرح تجاوزا ، مسالة الربط بين قضايا ذات علاقات متشابهة وطنيا أو عربيا • على سبيل المثال مسالة الربط بين فلسطين ـ التحرير ، وبين التخلف ، كمعطى مشروط بظروف نوعية محلية وعالمية •

ان التلاميذ عندما يعلنون مبدأ التحرير عـن يقيـن نضالى يدركون بالمقابل اهميته بالنسبة لواقعنا المتخلف اقتصاديا واجتماعيا وفى رأيي أن هذا أمرا طبيعيا ، يمكن التحقق منه بيسر اذا ما عرفنا بدقة مجرى الصراع الطبقي داخل المجتمع المغربى •

هناك نقطة أخرى تجب الاشارة اليها : الارضية التى تحد وعي التلاميذ من خلال شعرهم كمينات أولية • ان الوعى الذاتي كتعبير عن طموح طبقي ، هو ما يعطي لهذه الاشعار ، قيمة خصوصية ، من حيث مضمونها « المتحرر » وهذه ضمانة اولى • ان جل اهتمامات التلاميذ ، تأخذ شكلها النهائى ، فى وقوفهم الى جانب كل ما هو « سليم » ، ولو بفهم ساذج ، ولو بمعرفة غير تامة • ولا يمكن أن يكون الشكل النهائى كما وضحت من قبل ، الا الانطلاق ، والانعتاق، الى غير ذلك من دلائل الوثوب والحركة •

نستخلص أن هناك وعيا طبقيا ، وهو الذى يحدد انتماء التلاميذ ، وأن هناك وعيا سياسيا ، على شكل حافز معنوى ، يستمد عناصر بقائه واستمراره ، من « معاصرتهم » لمشاكلهم الخاصة على مستوى : المدرسة والبيت والمجتمع ·

هذه الافكار جميعها تشكل خلاصة مركزة لمستوى التجربة المعاشة داخل مجتمع المدرسة بصفة خاصة ، باعتبارها مؤسسة توجيهية ـ تربوية · التوجيه الذى يقود التلاميذ الى فهم مصيرهم بأنفسهم دون قسر مفروض ، عن طريق دفعهم الى المشاركة والتعاون · والتربية التى لا يمكن أن تكون ـ خلافا لما هو سائد وعام ـ الا على اساس وطنى ـ تقدمى · تحديدا من خلق مجال حر يتنفسون فيه ، الى دفعهم اكثر حيوية الى « التوحد » بمشاكلنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ·

قلت (التجربة المعاشة) لان كل ما قدمت هنا ، اذا كان من ناحية يدور حول فلسطين ، فلأن فلسطين بهذا المعنى هى المحور ، هى المتنفس · يبقى هناك المجال الآخر ، مجال مواكبة الاحداث الوطنية بفهم متقدم ، وهو ما يمكن ان نفصل فيه فى موضوع آخر· وأحب أن أوضح أنه لايمكن التعرف عى (فلسطين التلاميذ) الا من وجهة نظرهم لها : انها الخلاص الذاتى ، والخلاص الوطنى فى آن·

الى هذا الحد يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية :

1 ـ ان اختيار التلاميذ الذين اتيت على ذكرهم لموضوع فلسطين ، فى الشكل والمحتوى ، ليس الا التعبير الامثل عن وعيهم التواق ، المندفع · وهذا يسجل حدثا له أهميته الايديولوجية على المستوى النظرى فى بلادنا · ان ارتباط فلسطين بالشعور الشخصى ـ عندهم ـ ليس الا مظهرا من مظاهر الايمان بها نتيجة لقدرة ادراكهم ، ونفوذ بصيرتهم ·

2 ـ ان هذه الاشعار المقدمة ، تلتقى عند فكرة واحدة • يأتى التعبير عنها عند التلاميذ ـ لحداثة سنهم ـ بمفهوم أخلاقى ، كالثأر، والكرامة ، والشرف • ولكن هذا لا يمنع من أن نتصور أن ادراكهم يرتكز بالاساس على منطلقات صحيحة : طبيعة العدو الصهيونى ، الثورة ، التغيير •• وهذا يثبت الى حد معين التزامهم بالوقوف الى جانب كل ما هو عادل ، وسليم ، ووطنى •

3 ـ فى هذه التجربة موقفين :

أ) سياسى ، وهو ما يمكن أن يعثر عليه القارىء فى طريقة تناول الاحداث ، والتعبير عنها ، تجلية لموقف عام مشترك (تحرير فلسطين) مثلا • السياسة الاهتمام الصرف ، وليست السياسة التحليل ، هى ما يترك التلاميذ فى تعاطف دائم ، وارتباط مستمر، استنادا الى عمرهم العقلى • لهذا جاءت اشعارهم عبارة عن تساؤلات تقترن بمستوى الفهم لكل القضايا التى يبحثونها •

ب) طبقى ، وهو ما يشكل افق الوعى السياسى • ان انتماء التلاميذ ـ فى هذه التجربة ـ الى طبقتين جذريتين : العمـــال والفلاحين الفقراء ، هو ما يحمل المعنى الثـورى فى أشـعارهم ، ويحمل ايضا المعنى النضالى فى سلوكهم ، وتصرفاتهم • وفلسطين فى هذا الاطار ـ كما رأينا ـ هى التغيير ، والحرية ، والثورة ••

اوائل ماى 1972

عبد القادر الشــاوى

العدد الماضي في الميزان

ليس ما يجده القارىء فى هذه السطور مطابقا كل المطابقة لهذا العنوان الذى ينتصب صارما وكأنه آذن المحكمة عندما يصرخ صرخته ويلي ذلك دخول القضاة بردائهم الاسود ووقارهم الرهيب •

ولقد طلب الى اعضاء اسرة تحرير مجلة أقلام ، وقد اصبحوا ـ وتبارك الله ـ قيادة عليا ، أن أكتب ما يناسب العنوان أعلاه ، عن العدد الذى استأنفت به مجلة اقلام سلسلتها الجديدة • ولكن الزمن لا يرحم ، وعزمى على تلبية الطلب والاضطلاع بالمهمة التى أسندت الى كان عزما صادقا ولا فخر ، وكنت انوى التعليق على معظم ما جاء فى المجلة وعلى المجلة بصفة شاملة من حيث تبويبها ومحتواها وشكلها المتجدد • لكن سفرى القريب فى مهمة قد تطول لم يسمح لى الا ببداية جعلت منها فى هذه السطور انطباعات أولى عن بعض ما ورد فى المجلة من أبحاث وكتابات • وأرجو أن اجد العذر بهذا الكلام لدى أسرة تحرير (أقلام) أولا ولدى القارىء العزيز الذى اصبح الأن على علم بأن المجلة تعتزم الاحتفاظ بهذا الركن النقدى بين جنباتها ، والذى أصبح اذن من حقه المطالبة بميزان أقوم وأعدل فيما يستقبل من الايام •

المساهمة التى تقدم بها الاستاذ عمر بنجلون ـ فى اطار المناظرة حول القضية الفلسطينية • تبدو وكأن الكلام فيها موجه نحو فئة خصوصية من المثقفين المغاربة ، اولئك الذين تكونوا فى أوربا وفى فرنسا بالذات ، وتشبعوا بأفكار اليسار الفرنسى ، واقتفوا أثره فى تحليلاته واستنتاجاته حتى تورطوا فى الاخطاء

التى وقع فيها هذا اليسار او التى كان مدفوعا الى الوقوع فيها بحكم طبيعة بنيته التى تجمع بين الاختيار الاشتراكى والنفوذ الصهيونى فى آن واحد ٠

وعلى الرغم من تحرى الاستاذ بنجلون حيث قال « وهذا المشكل لا يعنى الاطر ذات الثقافة الاوربية وحدها » فانه لا يضع فى مقابل هؤلاء الا اولئك الذين « يرددون الامانى حول توحيد الامة الاسلامية من أجل تحرير القدس » ٠

وهو بذلك يتجاهل او يلغى من حسابه فئة ثالثة كان لها ــ والحق يقال ــ فضل التركيز قبل غيرها ٠ على الربط بين الصهيونية والاستعمار ولامبريالية العالمية ٠ وتوجد هذه الطائفة ممثلة على الخصوص فى المثقفين الذين عاشوا حقبة هامة من المشكلة الفلسطينية بمعايشتهم لاحداثها ، ودورانهم فى خضم التيارات الفكرية التى كانت تعج بها منطقة الشرق العربى فى العشرين سنة الماضية ٠

فبالنسبة لهذه الفئة لم تكن هناك مشكلة خطأ فى الرؤية تم تصحيحه فيما بعد ، لانها كانت متحررة منذ البداية من تأثيرات الفكر العربى وواقعيته المزيفة ذات الشحنة السالبة ، التى كانت تسيطر على اذهان متخرجينا من ذوى الثقافة الغربية الى وقت قريب ٠

وعلى كل حال ، فان مقال الاستاذ بنجلون انما هو تعبير عن ظاهرة ايجابية تصحح وضعا خاطئا لمعطيات المشكل بالنسبة لفئة هامة من شبابنا الواعى ٠

أما الاستاذ محمد الاخصاصى ، فهو شاب تتسم افكاره بالوضوح والترتيب المنطقى السليم الذى يدل على وعى متشد

وادراك عميق لمعطيات المشكلة الفلسطينية • لكن لا يفوتني هنا ان اقول ان مساهمته في العدد الماضي من أقلام انما هي تحليل او تشريح لمختلف معطيات القضية ومظاهرها على النحو الذي نجده في الكتب التدريسية التي تقسم الموضوع تسهيلا للبحث على الطالب • وهذه الطريقة في العرض رغم ميزة الوضوح واليسر التي تتصف بها ، تجعل للتعسف طريقا الى الموضوع ، وتعطي الفرصة لتداخل المفاهيم (الثورة الفلسطينية كحركة تحرر وطني ، البعد الطبقي للقضية الفلسطينية ، البعد القومي) •

فالبعد الطبقي لايفهم هنا الا بنوع من التعميم نخرج به عن دائرة الشعب الفلسطيني ، والا فاننا يجب أن نحل اشكالا بين اعتبار الثورة الفلسطينية حركة تحرر وطني أو اعتبارها مشكلة طبقية • ثم ان البعد القومي للقضية الفلسطينية لابد أن نفهم منه البعد العربي الشامل ، ومن هنا فان الثورة الفلسطينية تصبح ثورة عربية عامة يشتد اتضاحها وتحد شوكتها في الثورة الفلسطينية •

وكل هذه افكار تستحق الوقوف عندها ، وقد تكون مدعاة لنقاش طويل ينصب خاصة على المهام المستعجلة أو على الاسبقيات التي تفرضها طبيعة المعركة •

ننتقل الآن الى المحاضرة التي القاها الاستاذ محمد زنيبر في المدرسة العليا للأساتذة بالرباط سنة 1965 ، والتي وضع فيها ادبنا الحالي في الميزان •

لست ادري هل أن الاستاذ زنيبر لايزال مقتنعا ـ كما كان سنة 1965 ـ بأن ادبنا المغربي (الحالي) غير جدير بان يمثل المغرب لدى غيره من الامم ، وانه ليس له الا وجود الحدث الاجتماعي الذي يكون موضوع دراسة علماء الاجتماع •

واني ـ في الحقيقة ـ لم استطع أن أتأكد من احد مرين : هل الاستاذ زنيبر يقدم هذه الصورة القاتمة من حصيلتنا الادبية عابثا ومنكرا ومندهشا ، أم أنه ينقل الينا هذه الظاهرة كشيء طبيعي ومقبول في الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية والتاريخية التي نحياها الآن ؟

فاذا تجاوزنا هذه المشكلة التي لا جواب لها عندي ، فان باستطاعتنا أن نناقش بعض ما ورد في محاضرة الاستاذ ٠

يرى الكاتب المحاضر ان (أكثر كتابنا ينظرون الى عملهم في شيء من التساهل والتجاوز ٠٠ وأن الادب في نظرهم كلام منمق ومنسق ٠٠) الخ ٠٠

لست أظن أن هذا النوع من الكتاب هو الذي يشكل الاكثرية في الوقت الحاضر ٠

ولكن الاستاذ زنيبر يصدر بعد ذلك حكما قاسيا عندما يقرر بأن جميع فئات الكتاب في المغرب ـ محافظيهم ومجدديهم علـى السواء ـ قد اتفقوا على مبدأ التقليد ، وأنهم جميعا (يفتقدون تلك المادة الدسمة الشخصية ، وليس منهم من أتى بفتح جديد ينم عن أصالة مغربية) ٠

وأعتقد أن غيرة الاستاذ زنيبر على الادب في بلادنا قد جعلته يبالغ في هذا الحكم القاسي ، ويعمم ما لا قبل له بالتعميم ٠

ان الاستاذ المحاضر يضع يده الخبيرة على طائفة من الادواء التي يعاني فيها الادب في بلادنا ، وفي ذلك تكمـن قيمـة هذه المحاضرة ، الا انني أعتقد أن كثيرا مما ورد فيها ، اما طال عليه الامد واما جاء بوحي من فيض عاطفي مصدره الغيرة والرغبة في تغيير وضع ثقافي لا يتناسب مع مطامحنا ومع واجب الالتزام نحو قضايانا الرئيسية ٠

أما المقال المعرب عن الاديب النيجيرى (رول سونيكا) ، والذى يبدو أنه تلخيص لا تعريب ، فهو يقدم انتقادا للادب وللكتاب فى افريقيا بصفة شاملة ، وهو صورة نموذجية عما يختلج فى صدور عدد من كتاب افريقيا السوداء ، وما يعانونه مـن خيبة أمل فى المثقفين ، الذين تخلوا عن دورهـم الحقيـقى كمشرحيـن للواقـع الافريقى ، ومستقصين للادواء الحقيقية التى تعانى منـها القارة السمـراء •

ثم ان الكاتب يضع أيدينا على ظاهرة الترقب والترصد التى نجدها لدى أجهزة الاستعمار الجديد ، فى صورة مغريات وتشجيعات تقدم لكل ما هو تافه وخارج عن الموضوع من انتاج كتاب لازالوا لم يتعرفوا على دورهم الحقيقى فى مرحلة مابعد الاستقلال السياسى •

ولقد لفت نظرى مقال الاستاذ الشاعر احمد المجاطى حول موسيقى الشعر الحديث • وعلى الرغم من أنه مقال تخصصى موضوعه تقنية القصيدة العربية الحديثة ، فانه قـد يحـق لشخص غير متخصص مثلى أن يحاور صاحب المقال فى بعض ما قال •

ان الشاعر الاستاذ يعلمنا فى البداية كيف نفهم بعض مقاطع الشعر العربى الحديث ويأخذ بيدنا لنتعرف على الدور الذى ينبغى أن نعطيه ـ من الان فصاعدا ـ للألفاظ التى تضمها تلك المقاطع . وذلك ما يتجلى خاصة عندتحليله لمقطع من ديوان (الذى يأتى ولا يـأتى) •

ونحن بازاء هذا التعليم لا يسعنا الا ان نسلم ونقول : انتم اعرف يا أستاذ !

لكننى يصعب على جدا أن أتخيل أن الخنساء قد قصدت الى كل ما ذكره الاستاذ الشاعر فى نحو الصفحة الواحدة من المجلة ، عندما قالت :

رفيع العماد طويل النجاد   وساد عشيرته أمردا

وأحيل القارىء الكريم على المجلة ليتعرف الى أى مدى استطاع خيال الاستاذ المجاطي ورقة شاعريته ، وروحه الموسيقية الشنافة أن تذهب جميعا في (تحليل) ايقاعات الحـروف والحركات التـي يشتمل عليها البيت السابق ، وما يقابلها من مقاصد (استطاعت) الخنساء ان تحققها جميعا وبدون استثناء !

أعتقد ـ نتيجة لذلك ـ أن الشاعر الناقد عندما يحلل قصيدة او بيتا من الشعر وعندما يشرح لنا موسيقاه الداخلية وعلاقة جرس ألفاظه بالصور التي يعبر عنها ذلك البيت الشعرى ، انما يكون هو نفسه في حالة انتاج ادبي ، قد يتسم بالاصالة والابداع ، وقد تغمره الشاعرية ، ولكنه ليس على اية حال ـ التفسير الوحيد لمقاصد المنتج الاصل .

ومقال الاستاذ المجاطي ـ كما ذكرت ـ مقال تقني ، ولكنه لا يخلو من متعة لغير المختصين . وهو يعرفهم ـ على كل حال ـ على امكانيات القصيدة العربية في اشكالها الحديثة ، وهي امكانيات واسعة حقـــا .

انني لم أغفل التعليق على (حماقة الرفض التام) ولا على قصتي جنون الالم ولغة جديدة ولا على (رحلة عبر دوائر الاصفار) استهانة بها او اهمالا لها ، ولكن الوقت لم يسعف ، وان العدد الاول من السلسلة الجديدة يكتسب حقا أبعادا جديدة ، واهمية خاصة ، باجترائه على مثل تلك المساهمات الجميلة القوية التي أرجو ان يتأملها الاستاذ زنيبر ، قبل أن يحاضر من جديـد عن أدبنـــا المغـــربي !

الرباط ـ محمد صالح الزعيمي

سالم يفوت

ازمة الفكر في « ازمة الفكر العربي »

هناك قضية مشهورة في المنطق الصوري يطلق عليها «المصادرة على المطلوب » والمقصود ضعف الدلائل الواردة لتاييد صحة قضية ما وعدم منطقية الحجج التي نستعملها لتدعيم رأى ما • أو بتعبير أفضل في المصادرة على المطلوب بدلا من أن نتسلسل تسلسلاً فكريا منطقيا حتى نصل الى النتيجة نقوم بالعكس نتخذ القضية التي نريد اثبات صحتها كما لو كانت مسلمة ونبحث عن بعض الدلائــل لتأييدها حتى ولو لم تكن تلك الدلائل مقنعة •

كتاب « ازمة الفكر العربى » لا يخلو من مثل هذا النوع من القضايا المحتاجة الى دليل واقعي واثبات تاريخي • لقد أباح صاحب الكتاب لنفسه أن يقول أى شيء دون مراعاة صدقه أو خطئه ، أباح لنفسه أن يطلق احكاما لا تدل على نضج تفكير ولا على رؤية واضحة للامور كل ذلك قصد الوصول الى نتيجة جعلها عنوان الفصل الاول من الكتاب وهي : « الفكر العربى من عقدة الطابو الى الفوبيـــا السياسية » • بل الادهى من ذلك والامر أن صاحبنا يرتكب هنات واخطاء تاريخية ونهاجية فادحة وكل ذلك ناتج عن جهله ببعض القضايا التي يعرفها المبتدئون في الثقافة • فهـو مثلا يقول في الصفحة 8 :

« كانت الجزيرة العربية قبل الدعوة المحمدية عبـارة عـن « وسط طبيعى » ادوات بدائية للانتاج والعمل ، تجارة متنقلة ،

عمران تقليدى بسيط وكان الفكر العربى الجاهلى ، فى بساطته العقلية ولا مبالاته الوجودية ، انعكاسا موضوعيا لطبيعة منظومة القيم الثقافية والدينية ، وصورة حية عن النظرة الطبيعية ، والرؤية المادية التى كان يحملها الانسان العربى لذاته وللحياة أى أن الفرد العربى (٠٠٠) كان منتهى آماله الفردوسية ان يضاجع انثى على نغمات الناى والقصيد (٠٠٠) ذلك أن الرادع الدينى كمحبط نفسى ، كان أهون فى رقابته الاخلاقية من أن يتدخل فى تقنين الجزئيات الحياتية للانسان العربى آنذاك ، لان المعتقدات الدينية الجاهلية رغم احتضانها اتنولوجيا لابعاد غيبية خرافية كالايمان بالجن والعفاريت والشؤم ، لم تكن من الوجهة الاكسيولوجية من المثالية او الزجرية ٠٠» ٠

ما تمكن استنتاجه من هذا النص وامثاله ان صاحبنا ينظر الى الامور نظرة سطحية ويعتبر المجتمع العربى الجاهلى كما لو كان مجتمعا متجانسا وبالتالى أن اشكال الوعى المجتمعى فيه كانت كذلك اشكالا متجانسة او بتعبير أفضل نظر « المؤلف » الى المجتمع العربى الجاهلى كما لو كان وسطا هادئا لا تتمزقه صراعات داخلية كما لو كان بنية متجانسة لا تنافر بين مكوناتها وعناصرها وبالتالى اعتبر أن نظرة العربى الى الحياة والكون أى وعيه الفلسفى كانت نظرة متجانسة واحدة ٠ وفى هذا تجاهل فظيع للوقائع والحقائق التاريخية اذ من الثابت أن المجتمع العربى الجاهلى طبقيا لم يكن مجتمعا متجانسا فجميع كتب الادب القديمة تتحدث عن الفقر والغنى ٠٠ وهذا ان دل على شىء انما يدل على وجود فئات متفاوتة ٠ وربما احسن حجة يمكن الاتيان بها فى هذا الصدد هو شعر الصعاليك ٠ اى شعر تلك المجموعة من الفقراء الذين لم يكن لهم أى اعتماد مادى ما ولا اعتماد معنوى قبلى والذى يعبر بكيفية واضحة عن شعور قائليه بذلك التحقير الذى تعرضوا له من طرف

قبائلهم كما يصور الغارات والتمردات وحروب العصيان التى كانوا يشنونها ويخوضونها رغبة منهم فى الانتقام من مجتمع مغلق ذى قيم ومعايير مغلقة ٠

كما وجد شعراء عبروا عن رؤية الطبقات المترفة للحياة واظن أن أكبر ناطق باسمهم كان هو طرفة بن العبد ٠ كما عرف المجتمع العربى الجاهلى انتشار الافكار المادية والروحية ٠

اختلاف الافكار يدل على اختلاف الاوضاع المجتمعية والمواقع الطبقية كما يعكس اختلاف الخبرات والتجارب الاجتماعية ما دامت الافكار لا تولد بكيفية عرضية بل تخلقها الظروف والاوضاع المجتمعية والاقتصادية وخبرة الشخص وتجاربه فى الحياة ٠

وما أريد أن أصل اليه من كل هذا هو القضية التالية : ايديولوجيا وطبقيا لم يكن المجتمع الجاهلى يمثل وسطا متجانسا خلافا لما يدعيه صاحب أزمة الفكر العربى ٠

هناك مسألة أخرى أرانى أخجل من التنبيه اليها وهى : جغرافيا لم تكن الجزيرة العربية وسطا « طبيعيا » « بدائيا » كما يدعى صاحبنا ولست فى حاجة الى التذكير بالحضارة اليمنية القديمة وبالنهضة التجارية الكبرى التى عرفها شمال الجزيرة اذ هذه اشياء يعرفها المبتدئون فى الدراسة ٠

وفى آخر الفقرة التى اوردناها اعلاه يقول صاحب الكتاب « لان المعتقدات الدينية الجاهلية (٠٠٠) لم تكن من الوجهة الاكسيولوجية من المثالية او الزجرية » وما يريد أن ينتهى اليه من هذه الجملة هو أن الفكر العربى مع ظهور الدعوة المحمدية انقلب من « الرؤية البسيطة » الى ايديولوجية ثيوقراطية تمارس انواعا من

القهر والضغط على سلوك العرب وان الفكر العربى كذلك انتقل من الرؤية الارضية الموضوعية للظواهر والاشياء الى الرؤية اللاهوتيــة الغيبيــة .

اود هنا ان ابين لصاحبنا أن من بين الامور التى يتفق عليها المستشرقون الذين يدعون التزام الموضوعية والمفكرون المسلمــون المدافعون عن الدين أن الرسالة المحمدية لم تكن حدثا نشازا ولم تات بتجديد جذرى بل كانت استمرارا للقديم وصياغة جديدة له اى ان الاسلام كان استمرارا للقديم انما مع عرضه فى مسحة وقالب جديد وما يؤيد ذلك هو أوجه الشبه الكبيرة بين الدعوة المحمدية وبين ما كان يقول به الحنيفيون الى حد أن الكثير من المؤرخين يقولون بأن النبى استمع الى قس بن ساعدة وهو يلقى خطبته . كثير من الطقوس الدينية التى كان يمارسهاالجاهليون حافظ عليها الاسلام مع تهذيبها وتنقيحها . (الحج ـ الصوم) .

علاوة على هذا العربى فى الجاهلية لم يكن يعطى للاحداث والظواهر تفسيرا وضعيا أرضيا بل كان التفكير السائد والمسيطر هو التفكير الخرافى الغيبى وأن الاسلام حول ذلك التفكير الخرافى الغيبى الى تفكير لاهوتى توحيدى اى بدلا من الآلهة المتعددة او القوى الغيبية التى كان يؤمن بها العرب قال الدين بوجود آله واحد. وأظن أن ذلك لا يمكن اعتباره انقلابا جذريا فى الرؤية ما دام التفسير هو هو يبحث عن العلة والسبب فوق الطبيعة وليس فى الطبيعة نفسها . واظن أن صاحب « الكتاب » يغلب هنا الجانب العاطفى على الجانب العلمى الموضوعى ويتمثل ذلك على الخصوص فى اعتبار أن الدعوة المحمدية كانت أحد المكبحات والعوائق التى أخرجت العربى من بوهيميته وتلقائيته ـ انه يتجاهل امتدادات الدعوة الجديدة فى الحياة السياسية والمجتمعية ويتمثل ذلك فى اعادة توحيد العرب

سياسيا بعد أن كانوا خاضعين للامبرياليات القديمة (الفرس والروم) وفى توحيدهم ايديولوجيا وجمع شتاتهم الفكرى تحت راية الايديولوجيا الدينية • وقد يمكن القول باختصار بأن الدعوة المحمدية كان من اللازم ظهورها كنتيجة لمقدمات اجتماعية سياسية فكرية وكتعبير عن الطموح الاجتماعى المشروع تاريخيا لخلق شعب موحد فى الحقول الاجتماعية والاقتصادية والثقافية وبعيد عن الحروب المبيدة بين القبائل العديدة ، لقد ظهرت الدعوة فى القرن السابع الميلادى كحل للمشكلة الناتجة عن ذلك التناقض الصريح الذى ظهر فى هذه الفترة بين تطور المجتمع العربى اقتصاديا عن طريق الازدهار التجارى وبين ضعفه سياسيا واجتماعيا وفكريا • والدليل على ذلك هو أن الاسلام كايديولوجية ظهرت فى احضان مجتمع تجارى مهدد ما لبثت عند نجاحه أن حول البنية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لذلك المجتمع وطورها • هذا التطوير لم يصب فقط الجوانب التحتية من المجتمع العربى بل اصاب كذلك جوانبه الفوقية خصوصا وأن المشاكل السياسية ـ الدينية كانت عاملا اساسيا ادى الى ظهور الفرق الكلامية ثم الى انفتاح العقل العربى على الفكر الفلسفى اليونانى •

وكمظهر من مظاهر اندفاعية « الكاتب » العاطفية وجريه وراء اعطاء الاحكام السطحية هو اعتباره أن الضغط الدينى والسياسى الذى مارسه الخلفاء والحكام والفقهاء طوال التاريخ الاسلامى هو سبب انحطاط المسلمين وهذا شبيه بالقول بان المرض يرجع سببه الى عدم وجود الصحة • أى اعتبار النتيجة سببا واعتبار المرض هو السبب الحقيقى للمرض والمجال يضيق هنا عن تفسير الاسباب الحقيقة التى اخرت العالم الاسلامى انما أرجع بهذا الصدد «الكاتب» الى ما كتبه مكسيم رودنسون وأرنولد توينبى •

وأود قبل ان أنهي مقالي هذا أن اذكر بعض الملاحظات المنهجية:

1 ـ منهج صاحب « الكتاب » ـ ان صح ان لديه منهج ـ وصفي مثالي يكتفي بالمسح الخارجي للحوادث وبالوصف السطحي للظواهر مما جعله لا يستطيع النفوذ الى اسبابها الحقيقية وارتباطاتها الواقعية وقد ادى به ذلك الى أن يحيد عن النظرة الوضعية الموضوعية وأن يقع في الاخلاقية والاحكام المعيارية الوعظية العاطفية وأن يصب جام غضبه على « العقلية العربية العجوزة » معتبرا أياها المسؤولة عن كل شيء وأنها هي « التي أقرت عملية تكوين ايديولوجية عربية علمية تارة باسم الحفاظ على المقدسات ، وتارة باسم المحافظة على « امن الدولة » وتارة باسم شعارات عاهرة « كحماية مكاسب الثورة في ظل القانون » (ص 38) • بهذا يقع من حيث لايدرى في مزالق التفسير العنصرى لاسباب التقدم والتخلف الذي قال به ماكس فيبر Max Weber والذي يعزى تأخر العرب والمسلمين الى عقليتهم وتقدم الغرب الى العقلية المسيحية • ومن نتائج استعمال المنهج الوصفي الساذج كذلك الوقوع في النظرة المقلوبة للاشياء والتي تتجلى هنا في اعتبار النتائج اسبابا كاعتبار أن بوليسية المجتمع العربي عبر التاريخ وزجريته هي السبب في تخلفه •

2 ـ في « الكتاب » يظهر بوضوح انبهار « المؤلف » بالفرويدية والتحليل النفساني خصوصا في شكليهما « الماركوزى » الحديث ، يتجلى هذا الاعجاب والانبهار البليد في محاولته ارجاع « تخلف العقلية العربية » الى « طوطيمية » الدين الاسلامي و « عدوانية » الحكام العرب و « سادية » الفقهاء •

وهنا ينبغي التنبيه الى أن تاريخ المجتمعات والحضارات والشعوب لا يمكن ابدا النظر اليه من منظار نفسي سيكلوجي •

وحتى ان كانت هناك حتمية سيكلوجية فهى لا توجـد الا داخل حتمية اقتصادية وأن السيكلوجيا لا تملك على الاطلاق سر الظواهر الانسانية لان هذه الاخيرة تخضع لتحديد مادى تاريخي • وكل تفسير سيكلوجي يجب ان يتخذ له أرضية مادية تاريخية والا ينظر الى الظواهر الانسانية من زاوية حدوثها الفردى والا بقى تفسيرا احادى الجانب يتنكر لابسط المبادىء العلمية التى تثبت ان هناك ارتباطا جدليا بين الاشياء • يقول لوسيان جولدمان فى هذا الصدد:

« ان ثمة جانبا من الحياة الانسانية له موضوع فردى ، وهو الجانب الذى استكشفه فرويد وأسماه مملكة الليبيدو ، وانا أبعد ما أكون عن افكار هذه الحقيقة ودورها افى حياة الناس ، لكننى اعتقد ان الليبيدو ونشاط الليبيدو لا يقدم تفسيرا صحيحا لمعنى اى خلق تاريخي أو ابداع ثقافى » (الماركسية والعلـوم الانسانيـة ص 38ـ39 ـ جاليمار) •

3 ـ ينظر صاحبنا الى الفكر العربى فى تحركه بين قطبـى « المقدس واللا مقدس » وأظن أن هاتين المقولتين وغيرهما مـن مقولات بعض الكتاب مثل ميرسيا الياد وليفى بريل •• لا يمكن تطبيقهما على الفكر والعمل العربيين باعتبار انهما مقولتان لاتنطبقان الا على الواقع المدروس من طرف اولئك الكتاب وهـو المجتمـعات البدائية وأرانى هنا مرة أخرى مضطرا الى التنبيه بان المجتمع العربى الجاهلى لم يكن مجتمعا بدائيا بل كان على العموم مجتمعا تجاريـا متطورا •

4 ـ لا ترجع أزمة الفكر العربى الى كوننا فى حاجة الى مفردات ومصطلحات جديدة بل الى حاجتنا الى تفكير علمى واضح أى الى وضوح فى الرؤية والتعبير وعلمية المنهج بينت اعلاه عدم علمية منهج صاحب « الكتاب » والآن سوف أثير جانـب الوضـوح فـى

التعبير : نصف « الكتاب » عبارات وكلمات اجنبية • أيريد بذلك أن يظهر تفوقه اللغوى ؟ ان التفوق اللغوى فى نظرى ليس يتمثل في اتقان عدة لغات بقدر ما يتمثل فى تطويع اللغة ـ الام اى اللغة القومية والتعبير بواسطتها عن كثير من المفاهيم • وفى نظرى كذلك ان كل الكلمات الاجنبية التى يوردها صاحبنا هي كلمات لها مقابلات عربية هناك شبه اتفاق حولها والاتيان بها فى اصولها اصبح من قبيل تحصيل الحاصل • اللهم الا اذا كانت النية من وراء ذلك الظهور بمظهر « المثقف » والتمويه على الناس وتغطية الجهل بالغموض المتعمد واتيان الغريب من المفردات والكلمات • وبالفعل تلك هي حالة صاحبنا • وقد دلت التجربة التاريخية على أن من بين مظاهر الانحطاط الفكرى اللجوء الى غريب العبارات والكلمات والجرى وراء الشقشقة اللفظية والتستر وراءها حتى لا ينفضح الجهل وأروع مثال بهذا الصدد هو المقامات وأظن أن ما ورد فى « ازمة الفكر العربى » هو هذيان لا يمكن ادراجه حتى فى مصاف المقامات •

البيضاء ـ سالم يفوت

هناوى احمد الشياظمى

شعب تحت السقف

هـذا هو كتاب « السقـف » للأخ محمد ابراهيم بوعلـو • يحتضن « السقف » بين دفتيه ثلاثين أقصوصة قصيرة : اثنتا عشرة منها لا تتجاوز اربع صفحات وخمس صفحات لكـل مـن القصص الثمانية ، وست قصص لا تتجاوز كل منها ثلاث صفحات • وتبقى أربع قصص واحدة منها تشغل ثماني صفحات وهي أطول قصة في المجموعة ، اما الثلاث قصص الباقية فعدد صفحات كل منها ست

هذا هو النفس الجغرافي العام الذي يلهث داخل « السقف » وقد اجتمعت كل هذه القصص الثلاثين لتكون هذه المجموعة القصصيه التي نحاول اليوم تسليط الضوء عليها وتحديد المكان الواجـب وضعها فيه ضمن السلم القصير للكتب الادبية المغربية ، وهدى القراء الى قراءتها •

رأيت من الاليق ان اعنون جولتي هذه عبر كتاب بوعلـو بعنوان (شعب تحت السقف) وليس ذلك ابداعا مني أو اجتهادا خارقا ، ولكنه النتيجة الحتمية والطبيعية التي يخرج بها كل من درس هذه المجموعة • فاسمحوا لى ايها الاصدقاء أن أعطيكم ملخصا شموليا وبون لكتاب « السقف » واستعارته ليكون هـو المضمـون الكبير الذي يجمع بين ثلاثين قصة • ولعلكم ستندهشون لعلمكم أن هذا العمل الادبي ليس رواية أو مسرحية أو قصة مطولة ، بل هو قصص قصيرة • ومن طبيعة المجموعة القصصية أن تكون حلقاتها غير متجانسة المحتوى • ان ذلك صحيح ، غير أن مجموعة بوعلو هذه بالذات لا تنطبق عليها هذه البديهة •

ماذا يقول المضمون العام للمجموعة :

انه يحكي قصة مجموعة من الناس وجدوا انفسهم مع سبق الاصرار ودون سابق انذار ، محاصرين داخل طريق خطير ، فظلوا مدة من الزمن يتآكلون ويذوبون وتطرح عليهم تلقائيا مسألة ايجاد مخرج من الهلاك • لقد هلك قبلهم أهلوهم واحباؤهم ، وعليهم أن يختاروا بين الاستمرار في الذوبان والموت المؤكد وبين اطفـاء الحريق ومتى اختاروا السبيل الثاني فليفكروا في وسيلة ناجعة تقيهم الشر المستطير : هناك وسيلتان للنجاة اذن لا اقل ولا اكثر: اما أن يقفزوا فوق الحريق فينجوا بجلودهم ـ كما يقـول المثل ـ وليكن بعدهم الطوفان • ولكي يقفز الانسان فوق حريق رهيب لابد ان يملك الشجاعة والقوة الكافيتان ، وأكثر من ذلك لابد أن يملك زرا كهربائيا في فخذه أو بطنه يضغط عليه فيطير ، واما ان يتحد في كتلة متراصة مع الآخرين الذين هم داخل اللهيب ويعملون جميعا على اطفاء الحريق بعزيمة واحدة ونكران ذات واحدة والاستعداد للتضحية دون انانية أو اتكالية أو تهرب من المسؤولية لترتاح المدينة كلها وتخرج سالمة من الحريق معززة •

ان ابطال « السقف » يقررون جميعا تحمل المسؤولية واخماد الحريق بأيديهم ، بوسائلهم هم ، بنكران ذاتهم هم دون انتظار أيد خارجية ، دون الاعتماد على قوة غيبية بليدة عاجزة • وكان أن أخمد الحريق وأنقذ الضحايا انفسهم وجيرانهم ، وشرعوا بعـد ذلك يبنون المدينة من جديد ومن طراز حديث تمشيا مع روح العصر، والهندسة المعمارية للقرن العشرين •

ما هو القاسم المشتـرك اذن بيـن معـادلات « السقـف » ؟ انه هو الظلم والحرمان والاستغلال والبطالة والجوع من جهة ،

والتفكير بل والعزم على الخلاص من هذه الاوباء الخطيرة كلها • ذلك شيء يتكرر في كل قصة من قصص « السقف » •

ان بوعلو يريد أن ينبهنا الى هذه الحقيقة : هناك ملايين من الناس ، من الشعب الكادح ، يئنون تحت سقف اسفله متعفن موبوء ملىء بالافاعي والقاذورات ، ملىء بالسرطان •• ومن فوق السقف تتبختر ارجل الاقوياء الغليظة ، تدك السقف دكا •• والسقف تبتسم شقوقه وتصطك ضلوعه منذرا بقرب سقوطه على المحكوم عليهم بالمرض والجوع والقهر ••

ان ابطال بوعلو ليسوا ابدا من رواد كاليبو أو المولان روج أو الاحياء البورجوازية الانيقة ذات السوارى والمفاتيح الذهبية• وان حدث ان شمت رائحة ذلك فيهم فهم لايخرجون عن نطاق كونهم حراسا لقصور الناس الكبار أو مربين لكلاب بناتهم أو ماسحين لسياراتهم • انهم يشغلون زاوية مظلمة وسط الواح خشبية داخل الفيلات والقصور •

يعاني شخوص قصص « السقف » كل ضروب الاستغلال والبؤس ، وهم اذ يحسون بذلك لا يتصرفون تصرف أبطال الكتاب الرومانسيين البورجوازيين او النهيليين المتشائمين • انهم ثوريون والثورى هو ذلك الشخص الذى اكتشف عفونة الواقع الذى يحياه ويحياه شعبه واختار الطريق الشائك الصعب : طريق الكفاح من أجل تغيير هذا الواقع بواقع أحسن وأنظف •

لكن هل يكفي مجرد وعى عفونة هذا الواقع ليكون دافعا لتغييره بطريقة ايجابية ؟ على الرغم من أن سائر شخوص «السقف» يصلون الى نتيجة متشابهة وهى مقاومة الظلم عن طريق العنف « الرجل البرىء في عصرنا هذا يلزمه ولاشك ان يلوث يديه بالدم»

كما يعترف بطل « ساعة الرفض » ، على الرغم من ذلك فـــان عنصرا هاما في التغيير يظل منفيا خارج المجموعة باستثناء قصة (الورد) و(الف فرنك) وهذا العنصر هو عنصر التنظيم وتهذيـب الرفض والسخط ٠

انك لن تجد في القصص الثلاثين ملامح مراهق !! مراهقة تجرى وراء نزواتها الرخيصة وتصد عن مشاكل المجتمع ، بل ان عواطفك الغرامية توضع على الحروف منذ اول قصة في المجموعـــة وتتجمد القبل والمعانقات على امتداد مائـتي وعشريـن صفحـة (فالجيلالي الحوات) و (الرجال) و «الصديق» و «الرفيق» و « المعلم والطفل» وسواهم يعلنون بكل عصبية وتجد أن موضوع الساعة هو مشكلة الانسان الجائع والعاطل والمريض والطفل المشرد والمقعد باختصار هو البحث عن الحرية ، لذلك يلحون جميعا على ضرورة وضع مسالة خلاصهم من كل انواع الشر في جدول اعمال الحياة اليوميـة ٠

أكيد أن بوعلو كتب قصصه هذه في فترات متفاوتة تاريخيا ، لكنه اهتدى الى اللحظة الحرجة الحاسمة التي يضع فيها بشكـل تصويري رائع مآسي ابطاله الساكنين بمدن القصديـر والاحيـاء الشعبية العفنة التي انطلقت منها شرارات الكفاح من اجل الاستقلال وعودة الملك ٠

لقد مضى الى غير رجعة الزمن الذي كان فيه ابطال رواياتنـا وقصصنا ليتقبلون اللكمات في ذل وخنوع دونما مقاومة أو رد فعل كما فعل بطل قصة (رجل فقد وجهه) الذي لا ادرى كيف تسلل الى المجموعة ٠

تحس وانت تقرأ (السقف) بضغط واضح على مجرى الاحداث في كل قصة ، وترى الكاتب يوظف كل رأسماله الادبي ليبرز اهم

عناصر المشكلة في دقيقة او دقيقتين دونما رغبة في السرد او التطويــــل ٠

وبعد ٠٠ فهل نجح بوعلو في معالجته لمشكلة الانسان المغربي المحروم من كل شيء ؟ يقينا نعم ، فبوعلو لم يشأ أن يقف على الحياد في مجتمع تنخره تناقضات كثيرة ويحركه الصراع الطبقي المرير، صراع بين الطبقات الشعبية الفقيرة ، وبين كمشة محظوظة مــن الاغنياء والاحتكاريين ٠ انه من بين الكتاب القلائل في وطننا الذين فضلوا أن يعيشوا ، ولو على صعيد الكلمة ، بجانب الفلاح الذي لا ارض له والذي ينتظر القروض ٠ يستجديها « ليعيل بها اسرتــه قبل أن يحرث بها أرضه » (قصة خطأ) ، ورضي ان يصاحب الكادح الذي يتعرض لابشع استغلال وتعذيب وقهر اقتصادي يصل حتى الموت والانهيار من غير شفقة او رحمة ، من قبل الرأسمال الذي يفرض عليه اقتصاديا واجتماعيا بيع قوة عمله بأبخس الاثمان كأي بضاعة كاسدة ليخلق له باستمرار اثناء دورة الانتاج فائض قيم ، ويرافق المريض الذي لا يجد الدواء الكافي للعلاج في عصر اصبح فيه الدواء حقا مجانيا وطبيعيا لملايين الناس في ثلثي المعمور ، في البلدان الاشتراكية ٠ أما التلميذ والطالب المحرومان من حــق التعليم ومتابعته فملامحهم وخطواتهم نجد لها آثارا راسخة في « السقف » ٠

ان مثل هذه الاعمال الادبية المشرقة ربما لا نوليها الان العناية اللائقة ، ولكن من المؤكد أنه سيأتي الزمن الذي سيرصع هــذه الكتابات وسيظهر لنا ان مواقف ابطال (السقف) كانت تنبؤات صادقة وصحيحة ٠

كثيرهم كتاب الادب الواقعي ٠ ورغم انهم ينتمون الى مدرسة واحدة ، فاننا لا نعدم فروقات بين بعضهم ولاسيما في النهايات التي

يضعونها لقصصهم او مسرحياتهم او الخلاصة التى يرسمونها فى قصائدهم الشعرية ٠

وبالنسبة لى فان بعض اروقة الواقعية المعاصرة تعانى ، خصوصا منذ الاربعينيات ، سلبيات كثيرة تنعكس تارة فى التشاؤم واليأس وتارة فى الانتحار واللاموقفية الايجابية ٠ لاشك انكم قرأتم عن ابطال كتاب الغرب وشعرائه وبعض الكتاب العرب ، ومنهم المغاربة على قلتهم ٠ لقد رأيتم كيف ان الانتحار لدى تعقد الامور وتأنى الاوضاع وتراكم المشاكل ، وأن تعاطى الحشيش وكل صنوف المخدرات هو المصير الذى يحكم به اولائك الكتاب على ابطالهم ٠ فى الدار البيضاء نماذج كثيرة من هذا النوع ، نماذج حية نراها يوميا ونصطدم بها فى كل خطوة او تعترض طريقنا ليلا تريد عن جهل وعمى اغتصابا بارواحنا ظنا منها أننا المسؤولون عن بؤسها وشقائها ما دمنا نرتدى قمصانا نظيفة ، وأربطة عنق ٠ لكن فى القصص الخالدة يجب الا تكون الصورة فتوغرافية ٠ ان الفنان الواقعى هو الذى يحرك ابطاله حسب بوصلة التقدم والخلاص وليس تركهم لعفويتهم يعيشون وفيها يتخبطون ٠ وهذا ما فعله محمد ابراهيم بوعلو فى كل قصصه تقريبا ٠

صحيح ان جزءا من هذه الاروقة الادبية الواقعية يمر بفترة تمزق وتآكل ايجابيين ـ ان صح ذلك ـ قوامهما الرفض والرفض المطلق كما تجلى ذلك بعد نكسة يونيو 1967 بين كثير من مثقفينا العرب الذين استيقظوا على هول المأساة العربية الكبيرة ، لكن هذه الايجابية رغم كل شىء تظل محدودة ومكممة بطيئة العطاء ٠

وربما كان ابطال محمد ابراهيم بوعلو اكثر ابطال اوربا مشاكل ٠٠ ربما كان الحريق الذى يلفهم اشد توقدا واشتعالا من أى حريق آخر لكن تجذر الوعى بالمصير المشترك الواجب معانقته

لدى شخوص (السقف) غيره عند الآخرين · ومواقف (الابكم) و (المعلم والطفل) و (الجيلالي الحوات) وغيرهم من ابطال هذه المجموعة اكثر عصرية (والعصرية هنا تعني ضمير العصر) واعمق ثورية من مواقف أبطال آخرين في اعمال ادبية اخرى ترى الواقع الاسود بعيون سوداء وتحدد موقفها انطلاقا من هذه السوداوية الشمولية ·

ان ابطال بوعلو من دعاة التقدم ، ولا يمتون بصلة للقهقرى والتخلف ، هم يتطلعون دائما وبلا توقف الى الاحسن ، هذا الاحسن الذي سيحققونه بايديهم ·

ان الانتقال الى وضع احسن كما يعبر عن ذلك بطل قصة (ألف فرنك) يتم عبر نشر الوعي بين عامة الناس في المدينة والقرية واقناعهم بضرورة الانتماء الملموس والتنظيم ، لا الاكتفاء بالرفض والسخط والكراهية ·· فهذه الظواهر مشاعر فوضوية لا تجدي فتيلا الا الذين يقفون فوق السقف متبخترين منعمين ··

ملخصات سريعة للقصص

صياد

رجل صياد متزوج وله أطفال ، من سكان الاحياء القصديرية· يكسب قوته من عرق جبينه · يظل محافظا على شرفه وطيبوبته · تعرف عليه سائح امريكي هو وزوجته الشقراء · ان الصياد يتكلم الانجليزية بحكم التجربة ، بحكم المهنة · الامريكي وزوجته يستضيفهما الصياد لبراكته لشرب كأس شاي · يفترقون ويطلب منه الامريكي عنوانه فلا يعرفه فيجيب محرجا : « هنا ·· البحر ·· المغرب » ·

ساعـة الرفض :

المبادىء بالنسبة « للسيد » ضرب من العبث · ان « السيد » شخصية انتهازية خائفة · يقرر بطل القصة الذى يشتغل لـدى السيد رفضه لاوامر السيد القذرة ويقف وقفة شرف وصلابة قرر ان يصبح سيدا هو الآخر ··

الحـذاء الجديـد :

عباس يشترى حذاء جديدا ياما حلم بشرائه ، بعد عملية تقتير وادخار مضنية · يتحايل عليه بقال الحومة حتى يحجزه فى صندوق حديدى ريثما يسدد عباس ما عليه من دين ·

الـكـلـــب :

ان اطفال حارس قصر احد الاغنياء جوعى لا يعرفون انواع المأكولات والتى يحظى بها حتى كلب ابنة الغنى ، لا يسمعون بهذه المأكولات الا فى الخرافات التى تحكيها لهم أمهم حتى يناموا · يقع اختيار الغنى على هذا الحارس لرعاية كلب ابنته التى ستسافر · وسلمه ميزانية تحويل الكلب وقدرها عشرة دراهم فى اليوم · يفرح الحارس وزوجته واطفاله لانهم ـ ولا أحد سيراهم ـ سيتمكنون من التقاط بعض فضلات الطعام الشهى اثناء وجبة فطور أو غـذاء أو عشاء كلب ابنة الغنى · يضيع الكلب فتحدث ضجة فى الحى كله بحثا عن الكلب الهزيل لا يجدونه ·· وتكون العاقبة الطـرد من العمل مع التوبيخ ·

الدقـات الثـلاث :

اقصوصة رمزية تعبر عن ركوب الاهوال والمخاطر وقبـول التضحيات من اجل هدف اسمى ·

الابكـــم :

هو ذلك الشاب القوى العضلات الذى لم يجد عملا الا بصعوبة لدى اسكافى · الاسكافي يستغل بوحشية عمل الابكم · وحتـى 7،5 دراهم فى الاسبوع اجرة الابكم لا يمنحها له رغم مرور اسابيع كثيرة · تحدث المفاجأة · يتكلم الابكم · فيرفع حديدة يحاول بها تهشيم رأس الاستغلالى المقيت لولا تدخل عامل آخر ·

السـقــف :

اسرة فقيرة تتعرض باستمرار الى الطعن في كرامتها على يد اسرة بورجوازية · ابن البورجوازى يضرب بعنف ابن الفقير ، فلا تريد ان تقبل أم البورجوازى حتى شكـوى الاب البئيس · يقررون في الاخير تفجير السقف الذى يتبختر فوقه افراد الاسرة البورجوازية ·

صيـد الفجـر :

اصدقاؤه نيام ، وهو ساهر بالبحر والصنارة بيديه ينتظر دون جدوى ان يصطاد سمكا · فى الاخير يحصل على صيده بعد صبر طويل ·

البنـايـة الجديـدة :

تبنى الحكومة بناية بالحى تثير اهتمام وفضول السكان ، بعضهم يظنها مستشفى سيأخذ على عاتقه مسؤولية علاج المرضى المتكاثرين ، وآخرون يعتبرونها مدرسة ستحتضن الاطفال الذيـــن لم يجدوا مقاعد فيالمدارس الاخرى · وآخرون يتصورونها دار للعجزة تأوى المقعدين · لكن يتضح بعدئذ ان البناية الجديدة لا

هى بمستشفى ولا بمدرسة ولا أى شىء آخر وانما مركز للشرطة .

رفيــــق :

ناضل فى سبيل الاستقلال . صار متسولا فى ظله . علـق آمالا كبيرة على مجىء الاستقلال كلها خابت .

انســان يعـــدو :

انسان يحسن تحقيق الانتصار رغم صعوبة المسعى . فى سباق للعدو يفوز ابن الاعرج المتفرج الذى كان محـط سخريـة المتفرجين . ان الانسان الشعبى يخلق المعجزات .

البـغـــل :

قصة رجل يجد بينه وبين البغل الذى يقود الكروسة المحملة بالرمل لصاحب الورشة شبها كبيرا فى التعاسة والمصير . لكن الرجل لا يتخلى عن صديقه البغل بينما البغل يتخلى عنه بعد ان ينحنى الرجل على نصف ورقة الالف فرنك عثر عليها ويأخذ فى البحث عن النصف الثانى سابحا فى احلام لذيذة ستحقق له بعضها الالف فرنك ان اكتملت الورقة فى حين يتابع البغل طريقـه الى الورشة . تنتهى القصة بطرد الرجل وتوبيخه ويعود حزينا ونصف ورقة الالف فرنك فى يده .

المسخـوط :

كادح يظل يعمل بجدية واخلاص غريب فى العمل غير مبال بسخرية الناس ، حتى يسقط ميتا كما تسقط اى حشرة ، كان يتوخى فقط استمرار تعبه ونوال رضى رب العمل ، ذلك الرضى الاجرامى .

طيور البحر :

متسولة يجرف الفيضان خيمتها وزوجها المريض الذي ربطته الى وتد الحمار • تتسول كيسا من الخبز تأخذ ترمي قطعه الى طيور البحر متوهمة انها هي الاخرى تتسول •

طبال :

مات رفيقه الزمار فقطع على نفسه عهدا بأن يظل في حداد والا يعود الى الطبل • يعيش صراعا دراماتيكيا حادا بين نفسه من جهة وتشوق الجمهور اليه ، لانه كان منبع افراحهم وقرحهم يتلقى خبرا بظهور موهبة جديدة ، زمار له مستقبل زاهر فيستانف نشاطه •

على المشنقة :

مشكلة الجندي الذي يعذبه الاشتراك في حرب لا يومن بها ولايريدها • انه يتمنى أن تتوقف حالا ليعود الى وطنه • في حرب الجزائر شنقوا وطنيا جزائريا وكلفوا هذا الطالب الفرنسي المجند بحراسته ، يصرخ قائلا : من هم الجبناء جميع من يرضى منا بهذه الحرب ضد الجزائر ، الارض التي لاهلها كل الحق في ان يعيشوا احرارا » انه نفس مأساة كثير من الجنود الامريكان في حرب الفيتنام •

النار المحرقة :

« عندما يبني الطير وكره على غصن من الاغصان هل يسكن مكانا مسروقا ؟ » ذلك ما يقوله بطل الاقصوصة بعد أن يلقى القبض عليه حارس الغابة وهو يحطب منها الحطبة الاخيرة •

رجل فقـد وجهـه :

نتيجة للظلم والعدوان واللصوصية والغدر ضربوه ضربا مبرحا ، شوهوا وجهه ولم يعد باستطاعته اثبات هويته من خلال ورقة تعريفه او جواز سفره ·

وان ثو ثري فور فايف :

لعل تعلم الانجليزية سيخرجهم من ضائقتهم ان الرأسماليين الامريكان سيقدمون وسيشتغل معهم في التليفون مثلا · لكن لايجوز ان يضحي المرء بصحته وراحته من اجل حلم غامض هش ، من أجل (وان ثو ثري فور فايف) ·

الـــورد :

وهو يدرس بباريز اقتنع بتفاهة كل الغيبيات عاد ماركسيا وانخرط في حزبه قبل الاستقلال (ربما حزب الاستقلال) · يفد عليهم متصوف يقنعهم بأن قراءة الورد هذه الليلة 25 الف مرة كافية لتردع الفرنسيين عن القيام بنفي الملك ومطاردة الوطنيين المغاربة والاحزاب الوطنية · ينخرط هو الاخر في قراءة الورد · في اليوم الثاني يكون مرغما على الدخول لداره قبل السادسة مساء والالقى مصرعه · تفاهة الورد الحرز الحريز ·

صـــديـــق :

كان الوالد يسير وابنه على حافة نهر السين بباريز · لقد غرق هشام صديق الوالد الجزائري في الشهر ظهرت لهما جثة صديقه نزل الابن للنهر ورفعها فاذا هي جثة فرنسي اراد الابن ان يقذفها لمكانها ، عاتبه الاب لانه يجب ان يخرجها ، ولنكن نحن انسانيين اذا كانوا هم وحوشا ·

الجيلالي الحوات :

الجيلالي الحوات اوجد له زبونه الموظف في البلدية عملا · فرح كثيرا لانه سيصبح يتقاضى اجرة شهرية محددة · ولن يبقى عالة على تقلبات السوق ، وستنتهي قصة رائحة السمك وأكل السمك وبيع السمك ، تستفسره زوجته عن نوع العمل الذى جعله الفرح به والتفكير فيه لا ينام هذه الليلة · في الصباح الباكر يخرج حاملا مكنسة جديدة على ظهره · لقد صار شطابا مرحى ·· مرحى ··

الرجال :

رجل دخل عليه عهد الاستقلال بالخير واخوه مازال يعاني الفقر المدقع · التقيا برجل وسخ الثياب فعانقه الاخ الفقير الشيء الذي تقزز له الاخ الغني وزوجته · تبين ان هذا الرجل الوسخ الثياب هو المقاوم الكبير الذى كان يتشدق بمعرفته الاخ الغني عندما كان يثرثر حول الوطنية والتقدمية والانسانية ·

الف فرنك :

هي ذلك المبلغ الذى قيل بأن كل مواطن سيحصل عليه بعد الاستقلال من عائدات الفوسفاط · يقول احد شخوص الاقصوصة معلقا « اننا رجال مبادىء لا رجال فوسفاط » الاقصوصة تطرح مشكلة الثقة بقادة الاحزاب الوطنية الذين يدعون الى مجتمع مزدهر بعد الاستقلال ·

عودة الغريب :

الغريب مناضل ملتزم بتنفيذ اوامر حزبية بعيدا عن بلاده وأحبابه · ويظل معلقا ينتظر العودة دون أن يخرق مبدأ الانضباط الحزبي ·

مؤامـــرة :

شخص مرفوض يجد نفسه غريبا بين قوم لا يشاطرونـه معتقـداتـه ٠

خطـا :

قصة الروتين والبيروقراطية المعشعشين فى الادارات ، ويمضى طبعا ضحيتهما المواطنون ، الفلاحون الفقراء الذين يطلبون القروض مثلا كما فى هذه القصـة ٠

المعلـم والطفـل :

معلم لا ضمير له ، يوجه تلاميذه توجيها فاسدا لصوصيا ٠ كان معلما فى الابتدائى وبقدرة قادر ارتقى موظفا كبيرا يلتقى بصديق له كانا معا يعلمان ، الصديق مازال معلما يلاحظ ان الهوة بينهما سحيقة ٠ هذا يشرق وذاك يغرب ٠

كـان يملـك :

تتحدث هذه الاقصوصة عن مشكلة تضليل الناس بفكـرة القناعة حتى بالعدم ان البورجوازية والاقطاعية تروجان افكـــارا سامة استغلالية مثل أن أحسن ما عند الانسان هو الحياة ، كونه يحيا ٠ والاقصوصة تفضح فلسفة وجود الانسان من وجهة نظـر الطبقات المستغلة ، وذلك بأسلوب ساخر جيد ٠

ثغـــرات المجمـوعـــة

ككل عمل أدبى يحتوى على محاسن ونواقص فكذلك مجموعة السقف تعانى ثغرات فى البناء والعمق وفى الشكل والمحتوى ٠

وهذه الثغرات يمكن تلخيصها كما يـلي :

ثغـــرات في المضمـــون

لقد رأينا بما فيه الكفاية الجوانب المشرقة في كتاب السقف وهي جوانب ستبقى ولاشك فوق كل نقص وثغرات المجموعة ، لانها اهتمت بأشرف واقدس قضية مطروحة امام ضمير هذا الجيل ·

لكنّ مجموعة « السقف » ان كان ما يميزها في باب الضعف فهو افتقارها الى العمق والحرارة الفنية التي يجب أن يتوفرا في كل ادب واقعي صميم ، لدرجة ان هذه الاقاصيص تبدو وكأنهـــا مجرد تسجيل لخواطر مرت بانسان ، وهذا يتجلى اكثر فاكثر في القصص التالية : عودة الغريب ـ مؤامرة ـ الف فرنك ـ صديق ـ وان ثو ثري فور فايف ـ رجل فقد وجهه الخ ··

هناك ملاحظة أخرى تؤخذ على مؤلف السقف وهي تدخل الراوي احيانا في مجرى الاحداث دون ان يترك الامور تجري وفق مفاهيم ووجهات نظر شخوص قصصه · وترى ذلك واضحا في قصة (السقف) حيث يطل الراوي فجأة متقمصا دور المعلـــق على هامش الاحداث ·

بالاضافة الى هذا يدفع الكاتب عدم تعمقه في المشاكل والاحداث الى تكرار بعض مواضيع قصصه وتشابه كنهها ونهاياتها تقريبا :

أليست اقصوصة « المسخوط » ص 105 هي اقصوصة « كان يملك » الاخيرة لكن بأسلوب آخر ·

وان لم يخني تصوري فان اقصوصة « على المشنقة » مقتبسة بطريقة او اخرى من قصة « المحكوم بالاعدام » لفتحي رضوان او « في انتظار القطار » لعبد القادر البدوي ·

فالبطل واحد يصارع نفس التناقضات ونفس الحيرة ونفس تأنيب الضمير بتكليفه بمهمة لايومن بها ولايريدها مطلقا ، مهمة شنق الاحرار .

ما زلنا بصدد ذكر النواقص التى نجمت عن فقدان العمق والانصراف الى ضخ الافكار وضغطها وتقليص الحوار ،

ان تبسيط بعض المفاهيم هو احدى النتائج الطبيعية لهـذا السلوك . واليكم هذا المثل من قصة (الجيلالى الحوات) ص 175 :

« وبقيت هى مشدوهة لنوع العمل وللاسم الجديـد الـذى ستحمله ، اذ لم يكن يخطر ببالها ان يشتغل زوجـها « زبـالا » وتنبهت الى نفسها بعد برهة من الزمن مـرددة فـى داخلـهـا : « على الاقل اننا بذلك لن نبقى تحت رحمة رأس المال » ، والتبسيط فى المفاهيم الذى اشرت اليه هو « الراسمال » فالراسمال بنظـر القصة وقع التخلص منه بمجرد اشتغال البطل زبالا o ان الراسمال مازال حاضرا حتى ولو كان الجيلالى الحوات تخلص من « الراسمال» الاول المبسط والصغير .

هذه بعض الملاحظات السريعة التى خرجت بها عقب دراستى للسقف من حيث المحتوى .

ثغرات فى اللغـة

لن يجد القارىء صعوبة فى وضع اصابعه على كثير من الاخطاء اللغوية منها ما حصل سهوا ومنها ما حصل عن اقتناع . وساكتفى بعرض الاخطاء كما هى دون الرجوع الى القواعد النحوية :

– فى الصفحة 69 : اصدقائى كانوا بجانبى نيام .

– ص 71 : مادام هؤلاء بجانبى نيام .

ـ ص 80 : ووضعت فوق السين ثلاثة نقط وظهر الحـرف الثالث وعليه ثلاثة نقط ٠

ـ ص 77 : ثلاثة نظارات لثلاثة اشخاص ٠

ـ ص 85 : ننشد احدى الاناشيد ٠

ـ ص 86 : ان ليلى عمرها الآن اربعة عشر سنة وتحتاج الى عشرة سنوات ٠

ـ ص 101 « من الممكن ان يسهر بها عامل مثله الى الصباح في احدى الاقاليم النائية » ٠

ـ ص 115 : ان الكيس الذى تحمله ، يثبت ان ماقالوه صدقا

ـ ص 121 : كان راض ٠

ـ ص 131 : ان عينيه الجاحظتين كثير ٠

ـ ص 132 : « لكن عندما نظر الى حذاء الجزائرى الشاب ، ثم تسلق ببصره الى وجهه ، حيث عينيه الجاحظتيــن ولسانه المدلى ٠

ـ ص 133 : اننا كلنا مشنوقين ٠

ـ ص 140 : عما اذا كان هو ملزم ٠

ـ ص 174 : ان له راسمال ٠

ـ ص 180 : الكسب والشراء لايلزم ان يتوفر ٠

ـ ص 181 : وانه فى نظرهم رجلا مريضا ٠

ـ ص 198 : لكل مدينة شارعها الطويل ذى ٠

ـ ص 212 : رأى الرجل الكبير ذى ٠

الدكتور حسن المنيعي

كلمة عن المهرجان الثالث عشر

لمسرح الهواة « مايو 1972 »

اذا كان المسرح هو « الفن الذي يمشي » فان الهواة بالمغرب يؤكدون هذه القاعدة رغم ما يواجهون من صعوبات مادية ومعنوية ، لايواجهها المسرح الرسمي • واذا كانت ظاهرة المسرح هي التجربة الفنية أولا ، ثم طرح قضية « الانسان ـ الموقف » ثانيا في ابعاده السيكودرامية ، وفي صراعه ضد الآخرين ، فان الدراميين الشباب قد وجهوا كل العناية الى تلك الظاهرة ، ونمقوا أساليبها الى ان جعلوا منها قاعدة تنطلق منها اعمالهم الجادة كصواعق « تثير الرعب في البورجوازيين الناعمين الصلع الرؤوس » •

هذا ومع أن هنالك اسبابا عديدة تدعونا الى التفاؤل بحركة الهواة ، وبحيوية انتاجاتهم التي تصمد أمام كل تعسف ، فاننـــا نشير الى أنه لا توجد لدينا نهضة مسرحية بالمعنى الكامل • بل هناك واجهة تعرض سلعتها كل سنة : اي منذ الوقت الذي اصبحت فيه المهرجانات تقليدا ، ان لم تكن مظاهرة رسمية طالما دعونا الى تجاوزها عن طريق خلق مراكز مسرحية في كل المدن •

ذلك أنه أصبحنا اليوم نتوفر على عدد لا يستهان به من الكتاب الذين يهتمون بالمسرح كشكل تعبيري ، ويعملون على تجديده حسب

مداركهم • كما اننا أصبحنا نملك الى جانب ذلك مجموعة من التقنيين • وبالتالى ، فبعد أن كان الريبرتوار الاول يقوم على تقديم كوميديات مسطحة ، وميلودرامات ساذجة ، امست العروض اليوم ميدانا لاكتشافات عديدة ، تساير البحث التجريبى كما نلمس ذلك فى مسرح « محمد تيمور » ، أو تحاول تأصيل حركتنا الدرامية بالاعتماد على التراث الفلكلورى وتطويره كما يظهر ذلك لدى المجموعة المراكشية ، وعلى راسها « شهرمان والزيادى وكريم بنانى » •

وما دمنا قد المعنا الى أعمال الهواة فى دراسات عديدة ، فاننا سنكتفى فى هذه العجالة بالاشارة الى أهم الابداعات التى عرفها المهرجان الثالث عشر الذى نظم بمدينة مكناس • واول ما يمكن قوله هو أن هذا المهرجان كان قد تطرق الى موضوع واحد ، الا وهو الحالة المزرية التى تعيش عليها بلادنا • كما أنه كان قد كشف لنا عن كاتبين هما : « محمد ديالنا » صاحب مسرحية « طبوز والماء الحلو » التى شاركت بها فرقة الوعى القومى من طنجة ، ثم « لحوم فى المزاد » وقدمتها فرقة اللواء الفاسية •

أما المسرحية الاولى فانها تطرح قضية التسلط والقهر العسفى • ولبلورة هذا الخط ، فان الكاتب قد اعتمد على فكرة بسيطة : وهى استيلاء أحد الافراد على بئر القرية • ثم يستمر الحدث من خلال سلسلة من المواقف الفانتازية يصبح الانسان فيها « حمارا مكموما » ذا مطالب • وأخيرا ، ودون أن يكون هناك اى توتر درامى ، ينهزم الانسان المتسلط بعد ان عذبته أحلام ليلة مخمرة • ويصبح البئر ثروة مشتركة بين الجميع • ولولا البرلوج الخيالى ، وهندسة الديكور وتركيبة الاخراج ، لانعدمت الحركة الاساسية للموضوع ولضاعت ايجابيتها •

وفيما يتعلق بمسرحية « لحوم فى المزاد » المكتوبة بالعربية الفصحى نرى أن مؤلفها اراد أن يتطرق الى ظاهرة تواطؤ الحكم

الاقطاعي مع الدين ، وذلك من أجل السيطرة ، واتلاف المبادىء السامية ، وقهر أصحابها من الطبقات التحتية • وانطلاقا من هذا المفهوم تبدأ أحداث المسرحية ببرلوج فني رائع يستغل تقنيـة التباعد البريختية وأسلوب « الموزيك هـول » والالقـاء الجماعـي « نريد خبزا •• نريد كرامة •• المسيح لا يعطيكم الخبز » • وبعد ذلك يكتسب الموضوع معنى آخر في الوقت الذى نرى فيه مقابلة بين عالمين متناقضين (المرأة الاجيرة والرجل الاخلاقى المتحايل) وتزداد المواجهة حدة عندما تصبح المرأة ضحية الرجل ، الذى لايعدو أن يكون الكونت « أوجست » الذى اغتصب « حادة » وحطم جدارها المقدس بعد أن أعدم والدها الفلاح الذى كان يقود جماعة المتمردين• وأخيرا تصبح « حادة » رمزا للثورة الدائمة ، بعـد أن تنكر لهـا اخوانها من الفلاحين • ثم يشتريها فى المزاد أحد القساوسة ليتمتع بطراوتها قبل اعدامها فى الصباح الذى كان موعد الخلاص بالنسبة للمستضعفين • وهكذا ينزل الستار بعد أن غاص الكاتب فـي شعارات مثالية وألاعيب لغوية جردت المسرحية مـن ديناميكيتها الدرامية ولو أن المخرج الشاب « الخمليشـي » كان قد حاول تغطية المضمون عن طريق مراعاة انسياب فى الحركة ، وتنميق فى تكوين الشخوص ، ومراقبة الاداء الذى سقط أحيانا على يد الفتاة •

وباستثناء هذين النتاجين ، فان فرقة العروبـة البيضاويـة لم تعمل الا على اجترار أسلوبها فى مسرحية « الخوف •• الصمت والقلق » رغم أن عبد العظيم الشناوى كان يريد التجديد فى ميدان الاخراج • وهكذا يقف « تيمود » و « شهرمان » و ((الزيادى)) كعمالقة المهرجان عبر فرجاتهم الرائعة •

ـ خيوط •• حبال •• وشعر (مسرح الفصول ـ مكناس)

لقد كان « تيمود » يحاول فى كل تجاربه أن ينسلـخ عـن المسرح التقليدى ليقبر عن اقتناع فكرة جاهزة أو موضوعا منسقا

ينطوى على بداية ، ووسط ، ونهاية ، وذلك ليقدم لنا عملا مسرحيا يلتهم كل أنواع الدراما ، ولو أدى به ذلك الى اتباع تقنية التلصيق التى تقوم كاتجاه فى ميدان الفنون التشكيلية •

وعليه فان مسرحية « خيوط •• حبال •• وشعر » تفرض نفسها كبحث استتيكى يرصد أشكالا عديدة من التعبير نجد لها بديلا لدى « موريس بجار » و « أنطونان أرطو » و ((برخت)) و « بسكاتور » و « ألفريد جارى » • انها نتاج له دلالات عميقة تبدو من خلال الحركة ، والايماءة ، والرقص ، والصمت ، واللغة المهشمة التى تأخذ مجرد شبر من الحدث لتجعل باقى العناصر التعبيرية الاخرى عبارة عن شاشة عريضة تبرز من خلالها مشاكل الانسان المسحوق فى كل مكان • غير أن انسحاقه لا يبدو لنا عبر معادلة رياضية أو منطق أرسطى ، بل من خلال تركيبات ولوحات تحاكى الحياة اليومية ، وتجعل من الخشبة عالما دوديا تحيا فيه الانماط وتموت ، تعانق الطفولة (مشهد الاطفال وهم يمرحون) وتتحمل جفاف اللحظة والمبادىء ، وتناضل من أجل البقاء (مشهد الاجيرة) دون أن تنهار الحواجز التى تعوقها ، كما أن وجودها الزمنى يتقلص عبر الساعة التى تشير دوما الى العاشرة والقطار الذى وصل ليقف مائة سنة •

وباختصار فان « تيمود » ينقل الواقع الانسانى عن طريق واقعية فلاشية ، وتجريدية آلية ، ويسعى للوصول الى تقنية تفتت منطق الحقيقة لفرض تحولات جديدة لدى المتفرج ، ولاثارة وعيه وذلك عن طريق الحركات التى تنطوى على عنف والتى تتجاوز اللغة المنطقية المقنعة •

ـ الضفادع السوداء (فرقة كوميديا المراكشية)

ان « شهرمان » و « الزيادى » يكونان اتجاها مسرحيا مستقلا• فهما لا يسعيان الى اطلاق الصرخات المجانية ، بل الى تقديم بديل

عن ذلك يرمي الى الاقناع على الخصوص • ففي دوامة عالم مغربي ـ مراكشي تتلاحق صور من الحقيقة الانسانية ، بعد أن تأخذ أبعادا خيالية لترتكز على جزئيات واقعية • فالضفادع السوداء ليست الا جماعات المقهورين في غينيا والموزمبيق وأنكولا ، وبريتوريا • وفلسطين ، وفي آسيا وأمريكا • وهي تصارع من أجل الحفاظ على غديرها ، كما يصارع الانسان من أجل استرجاع كرامته وحقوقه المسلوبة • كما أنها تقاول في صمود وثبات ، وتدرك معنى الاتحاد بمفهومه الثوري الشامل (ياضفادع العالم اتحدوا) • لذا فان القوة الغاشمة لم تتمكن من ابادتها •

من هذا المنطلق كنا أمام فرصة هائلة تستغل تقنية المسرح الكامل « Th. total » وغيرها من التقنيات المعروفة لدينا منذ القدم : كالحلقة التي تبرز وجوهها عبر المبسط ، وصندوق العجب، ودكان الاخبار ، ودكان القوالب • أما فيزياء اللغة (حتى لا نقول رمزيتها) فانها كانت تخدم الموضوع بشكل خارق مما أحدث تجاوبا بعيدا مع الجماهير التي كانت تصفق وتزغرد : الشيء الذي أكد بأن العرض المسرحي ليس الا مجرد « حفل » يحدث تواصلا مع المتفرجين عن طريق سحرية ورقيات تولدها بعض الشعائر ،

الى جانب ذلك كان الاخراج ينطوي على اشعاعات وخيوط شيطانية ، تراعي الحركة الجماعية والفردية ، وتتداخل فيها كل العناصر الغنائية والايمائية والكلامية لتجسد بوضوح مجموعة من الاحتمالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تحدد المواقف• وبقطع النظر عن اللغة ، فان هذا العمل يمتاز بطابع عالمي متكامل ، ويشرف مسرحنا في الداخل والخارج رغم انصبابه في بوتقة محلية لانه يبتعد كثيرا عن الاشكال المتقلصة التي أدت الى افلاس بعض الاعمال الدرامية المفتعلة •

آراء حول

رشيش... والبراق

هل يمكن اعتبار فيلم (البراق) خطوة ثالثة فى اتجاه المخرج المغربى الشاب مجيد رشيش ؟ وهل له حقا اتجاه معين بحسب المفهوم المتداول نستطيع أن نؤطره فيه من غير أن نقع فى التباس؟

الواقع أننا فى بلداننا « المتخلفة » نحتاج الى تروى فى الاخذ بمفاهيم الغرب ، او عدم الاخذ بها • لان الاساليب الفنية التى نتبعها فى انتاجنا كثيرون منا يودون الخروج عنها ، ونهج سبيل يناسب معطياتنا ومقوماتنا ، والحكم على كل انتاج من انتاج هؤلاء من غير الاخذ بهذا الاعتبار يوقع الكثيرين ممن يتناولون الاعمال الفنيـة عندنا بالنقد فى كثير من المزالق •

اذ علينا قبل أن نتحدث عن فيلم (البراق) لمجيد رشيش من أن نسوق ذلك الاعتبار لان المتتبع لافلام هذا المخرج الشاب لابد وأن يدرك أن هناك ، فعلا ، اتجاها معينا خاصا ، من ذلك النوع الذى قلنا عنه بانه يحاول ان يتلاءم مع معطيات أخرى ومقومات أخرى غير المتعارف عليها :

فالفيلم قصير ، والعادة جرت أن يكون الفيلم القصير وثائقيا، تسجيليا ، ولكن فيلم (البراق) يتناول قصة ، لها شخصياتها ، وأحداثها وتأزمها ، وانفراجها ، بحيث لا يمكن تاطيره من بين الافلام الوثائقية •

ولماذا تأطيره ؟

الواقع اننا نفعل ذلك من أجل تقريب المعنى للذهن ، ولكن هذا قد يبعد المعنى بدل أن يقربه ، لان وضع عمل فني مثل هذا الذي نتحدث عنه في اطار محدد سابقا يجر علينا في نهاية الامر أن نتعسف في الاحكام التي نصدرها عليه • قلنا بأنه فيلم قصير ، من حيث زمن العرض ، وهو لا يختلف عـن الفيلميـن السابقين (6ـ12) و (الغابة) والمشاهد لهاته الافلام سيقر في ذهنه انه بازاء شيء جديد فعلا• والجديد في مثل هذه الامور يتطلب وقتا للاستئناس به ، خاصة وأن المشاهد عند ما يخف الى النقاد ليسعفوه في ابراز خاصيات هذا العمل ، والقاء الاضواء على ما خفي منه ، يجدهم هم الآخرين يبحثون عن اطار من الاطر المتعارفة لادخاله فيه ، وبهذا تشتد حدة الآراء المتضاربة بين مؤيد ، وبين ساخط ، من غير أن تسعى الى ادراك العمل الفني في خصوصيته •

فمثلا نجد من بين النقاد من يسعى الى جعل (البراق) تتمـة لفيلم (الغابة) ، وهذا الناقد اما لانه يسعى للبحث عن زمن أطول للفيلم ، فيجمع الفيلمين في فيلم واحد ؛ اوما لان بطل الفيلمين (ماجد محمد) واحد • واما لاعتبار آخر ، مهما يكن له من تبرير فان الكسل الفكري هو وحده المبرر الحقيقي ، لان اجهاد الفكـر في البحث عن مقومات فيلم على حدة ، يجلب لهم جهدا ليس في استطاعتهم بذله •

ولكن لماذا هذه المصطلحات : قصير ، مطول ، مسلسل•• اذا لم تكن من أجل اشارات الى انواع معينة من الافلام من حيث زمن العرض ليس الا ؟ اما من حيث اصدار قيمة تناسب هذا العمل أو ذاك ، فهذا ما لايمكن أن ينطبق بحال من الاحوال على الفيلم الذي نتحدث عنه الآن •

ولايضاح ذلك لا بأس من أن نستأنس بمثال الرواية والقصة القصيرة ، فالذين يكتبون الرواية يحتاجـون الى حيـز أطـول ، ومجال اوسع من غيرهم من كتاب القصة القصيرة ، غير أنه من حيث اصدار حكم قيمة ، فاننا لا يمكن أن نقلل من أهمية قصة في صفحات قليلة ، لانها أقل طولا من الرواية ، بل ان لكل منهمـا خصائصه ، واساليبه • فالطول لا يعنى الجودة ، والقصر لا يعنى عدمها • والذين يقولون عن الفيلمين (الغابة) و (البراق) بأنهمـا يشكلان فيلما واحدا مثلهم مثل الذى يجمع عدة قصص قصيرة فى كتاب ويقول عنه انه رواية •• !

ومن هنا ، نرى أن الميزة الاساسية التى توصلنا اليها من أعمال (رشيش) انها خطوة الى مفهوم جديد فيما يتعلق بزمن العرض حتى ليمكن ان نقول عن ذلك بأن (رشيش) يخط فى السينما ما خطه كتاب القصة القصيرة الاول فى عالم الادب •

أما الدوافع الى ذلك فكثيرة ، يمكن لمن يهمه الوقوف عندها أن يحصى منها ما يشاء ، ولكن الذى يهمنا نحن أن هناك اسلوبا جديدا تم تحقيقه فى بلدنا على يد شاب يبشر بالعطاء الكثير ، والجيد أيضا اذا ما اعطيت له الامكانيات الضرورية ، واتيحت له الفرص الكفيلة بتحقيق مشاريعه ، اغنى تجاربنا فى السينما المعاصرة •

ولننظر الآن الى شيء آخر نطلق عليه المحتوى • انـه من الصعب جدا أن نفصل شكل الفيلم عن محتواه ، واذا كان فى الامكان الحديث عن قصة الفيلم ، فان ذلك انما يدخل فى مجال تقريب المعنى للذهن ، أما قصة الفيلم فهى الفيلم ، وهى الشكل ، وهى المحتوى ، وهى لغته الخاصة ، التى تشتبك فيها كل تلك الامور وتتفاعل لتحدث الجو المناسب الذى يرجوه المخرج •• ولكن لابأس ، فالقصة يمكن تلخيصها بتجاوز على الشكل التالى : ب

منصور يحتضر ، يموت ، ويترك قطعة أرض لابنه منصور (ماجد محمد) العامل باحدى المطابع بالمدينة ، يقدم اليه أحد اعيان القبيلة (عبد الجبار الوزير) في سيارته الفخمة ليشتري منه قطعة الارض ، بدعوى انه سيقيم عليها مسجدا يعبد فيه الله ، لان القرية لا تملك مثل هذا المسجد • ويستعين ــ للحصول على رغبته في امتلاك الارض التي يهمه منها حقيقة ان يسير فيها وحده ــ بجميع الوسائل من جملتها القايد •• وحتى بقتل الشاب منصور في نهاية الامر •

قد يكون موضوعا مثل هذا طرح لعدة مرات في عالم السينما والمسرح ، والادب ، حتى يحلو لبعض النقاد أن يرى فيه موضوع استنفذ امكانياته ، ولكن حكما مثل هذا يعد من المغالط التي يطرحها البعض من غير أن يدركوا اخطارها • فنحن عندما نعالج مواضيع مثل هذه ، والتي تمس واقعنا لا تعد مثل هذه الاعمال ثانوية الغرض منها طرح قضايا من اجل عرض « عضلاتنا » الفنية ، وقدرتنا على التلاعب بالاساليب الفنية ، او استخدام اتجاهات فنية معاصرة لاظهار مستوانا الفني بالنسبة لها •• نحن في بلداننا «المتخلفة» مطالبون بالنظر الى واقعنا ، وقضايانا ، وبالتالي اساليب تعبيرنا ، ومن هذه الزاوية بالذات نقيم أعمالنا ، ونصدر احكامنا ، فمقاييسنا اذن ستنبع من هذه المعطيات ، أما أن يقال عن هذا الموضوع بأنه استنفذ ، وان هذا اسلوب آكل عليه الدهر وشرب لان غيرنا سبقنا اليه ، وعالجه بطريقة ما ، فان قولا مثل هذا بعيد عن أن يكون صادقا ، ولابد وأن يكون صاحبه مغرضا • اذ ان اراضينا ما تزال تغتصب من اصحابها ، وأن الاقطاعيين يحتالون عليها بشتى الاساليب ، وأفعالا مثل هذه لم تستنفذ بعد ، ولم يقض عليها ، وستكون الاعمال الفنية التي تعالجها وبمستواها لم تستنفذ أيضا •

القصة اذن تعالج موضوعا يرتبط بواقعنا ، والذي لا يهمه واقعنا من غير شك أنه سيتحيل بشتى الوسائل لتوجيه الانتقادات المختلفة لينتقص من قيمة كل عمل فني يعالج واقعنا • هذه النقطة

بالذات علينا ان ننتبه اليها قبل ان نردد فى كثير من الاحيان ما يقوله بعض النقاد ٠

ان على الفن أن يعكس واقعنا ، هذا أمر يعد مفروغا منه ، غير أن الذى ينبغى الايعزب عن ذهننا هو أن طريقة الانعكاس لاينبغى أن تفهم ـ كما يحلو لبعضهم أن يتصورها ـ آلية محضة والا لما اعتبرت عملا فنيا له ميزاته الخاصة ، ومن هذه الزاوية بالذات ينبغى أن ننظر الى (البراق) لا لانه يعالج قضية من قضايانا فقط ، ولكن لان صاحبه عالجه بطريقة خاصة ، تحس معها أن الموضوع أصبح عملا فنيا حقا ، له مقومات العمل الفني وأصالته ٠ وما دام (البراق) عملا سينمائيا فينبغي أن تدخل الانتقادات التى توجه اليه اعتبارا اساسيا ، وهو أنه من الاعمال السينمائية التى تختلف أساليبها ، من غير شك ، عن أساليب المسرح وفنون الادب عامة ٠

فاللغة ـ الصورة التى يتحدث بها رشيش تستبد بنا الى نهاية الفيلم ٠ فنحن منذ اللقطات الاولى نحس بأننا بازاء لغة يحسن صاحبها اختيار الفاظها ٠ ففراخ الدجاج تأكل بعضها ، قويها ينهش ضعيفها ، وطاحونة الهواء تدور مع الزمان ، والعصفور البرىء يغازل أغصان الشجرة المزهرة ، والجواد الطليق يعبر الحقول ٠٠ عالم من الاحاسيس والمشاعر تزخر بها تلك الصور التى تشكل مع عالم الانسان حيث مقرىء القرآن العجوز ، وحيث صوت آلات المطبعة ، وصوت السيارة ، وحتى الصمت ٠٠ لحظات الصمت البليغة التى تدور بين (ماجد محمد) والرجل القصير ، او بينه وبين الفتاة ذات الشعر الطويل ٠٠ لغة مركزة ، موحية ، شاعرة ، لها صيغها داخل الاحداث التى تجرى فى طلاقة فتشكل صيغا جديدة لتحكى قصة الانسان مع أخيه الانسان ٠

أما عن الحوار الذى يجرى على لسان شخصيات الفيلم ، فله نغمته الخاصة ، انه مقتضب ، ويعكس بصدق مفارقة الفئتين

الاجتماعيتين اللتين ينتمي اليها كل واحد من الشخصيتين الاساسيتن ويسهم في الاحساس بتداخل الزمن ·

ذلك ان الزمن فى (البراق) يتداخل بل ان الزمن الذى يمكن أن يمر فى جزء من الثانية يتمدد ، ويشمل عدة لقطات ، تبتدىء منذ حادثة السيارة حتى نهاية الفيلم ، انه زمن داخلي يشمل ماضى البطل وحاضره ، بل « ومستقبله » أيضا · حيث ينتقم لنفسه من قاتله ، عندما يتخيل (الوزير) داخل السيارة وجموع (الهداوين) تطارده الى أن يغمى عليه ، وتلقى عليه الرمال ··

من غير شك أن الجزء الاخير من الفيلم يتطلب وقفة قصيرة ، لا لان نهاية العمل الفني تسمح لنا بأن نحكم له او ضده ، ولكن أيضا تحتاج الى تحليل ، حتى لا نقع فيما وقع فيه بعض النقاد ، الذين بدل أن يحللوا اللقطات ويربطوها بمجموع لقطات الفيلم نجدهم يصدرون حكمهم عليه ، بانه « امتزاج الواقع بالخيال » فى حين أن الامر غير هذا · حقا ، ان أسلوب النهاية يختلف عن أسلوب بقية اجزاء الفيلم الاخرى · ولعل ذلك راجع الى أن الزمن الذى يستغرقه يختلف بالفعل عن زمن مشاهد الفيلم الاخرى · انه زمن نفسى يأتى فى قمة الاحداث التى شكلت الفيلم · وهو يتناسب معها لا فى اضاءة الصورة ، ولكن حتى فى الشباب ، ومنظر البحر ، واصوات الطيور ، وهدير الامواج · ولكن لماذا هذه النهاية ؟ و (هداوة) بالذات ؟

هنا يقع السؤال الذى لابد من طرحه ، والذى تشكل الاجابة عنه تقييما حقيقيا لايجابية الفيلم او سلبيته ·

فاذا اعتبرنا (هداوة) اشارة الى الطابع المحلى الذى يشكل ذهنية مغربية امتزجت فى نفسية البطل ايام طفولته بطابع خرافى ،

وأن هذه الغيبيات لابد وأن تبرز فى وقت الشـدة ، لتنتقم مـن المغتصب • فاذا كان هذا التبرير قد صادف قبولا ، وهذا ما نرجوه، فان (البراق) يعد عملا ايجابيا حقا • اما أن يموت البطل ، وبموته تتوقف احداث الفيلم ، ونحكم بالتالى للاقطاعيين بالبقاء والخلود فى حين ان اصحاب الحق يلقى بهم فى قارعات الطـرق مدرجيـن بدمهم فهذا لن يكون بأى حال عملا ايجابيا •

ولكن يبقى السؤال الآخر مطروحا ، الم يكن هناك حل آخر غير هذا ؟ الفيلم لايعطى الا هذا الحل ، والحوادث الـتى ساقهـا لتتجه اليه •

تلك بعض الآراء حول فيلم (البراق) من الواضح انها كانت مساهمة فى التعرف على عمل سينمائى مغربى شاهد النور سنة 1971 ، ومدة عرضه 30 دقيقة ، بالابيض والاسود ، مقياسه 35 ملم انجاز المركز السينمائى المغربى ، ومن اخراج مجيـد رشيـش • ولكن السؤال الذى طرحناه فى البداية والذى كان يقتضى منا اجابة صريحة مثل أن نقول عن المخرج بأن عمله هذا خطوة ثالثة نحو اتجاه معين ، ولكن لما سبق ان أبدينا من آراء جعلتنا نتعرف على عالم آخر لاتكفى فيه الاجابة بنعم أولا ، فنحن أمام أعمال لا يمكننا ان نصدر فيها حكما قاطعا ، لانها من جهة لها خصوصيتها ، ومن جهة أخرى تختلف عن الاتجاهات الفنية الاخرى التى تند عن التأطير داخل اطارات التعبيرية ، والانطباعية ، والسريالية •• لاننا اذا ما تعسفنا وحاولنا ادراجها تحت اطار معين من تلك الاطارات نكون قد اذنبنا فى حق مخرجنا الشاب الذى يشق طريقه بقوة ، وبحزم •

الرباط ــ م١٠ب

مصطفى الادريسي المسناوي

أقصوصة

البسمة

عندما مرت الحلوة امامي ـ ضفيرتها تهتز فوق ظهرها ـ ونظرت الى وجهي مستطلعة ، ابتسمت لها . حولت عني وجهها ، ثم فجاة ، عادت ونظرت الى باستغراب . رأت انني ابتسم بالفعل . فتحول استغرابها الى بسمة ، ووقفت تنظر الى . تمطى الزمان والمكان وتلاشيا ، ولم يعد هناك سوى العينين الموهوبتين لى بكل سخاء . والحبل الخفى الرابط بين عينينا .

كالمسحور اقتربت منها هامسا :

ـ لقد حلمت بك البارحة .

ردت بما يشبه الزقزقة :

ـ وأنا أيضا .. حلمت بك كل ليالى الماضية .

مددت يدى لتحتضن يدها .. لكن !!

بدون أدنى توقع سابق . وقف شخص بيننا . شخص عادى تماما . كأى الناس(1) . ذهلت . لقد حجب عنى حلوتى تماما .

(1) الناس الذين كنت تحولهم فى انشاءاتك الابتدائية الى مقولات جمالية :
(انشـا ـ
الموضوع :
كنت ذاهبا ذات صباح الى المدرسة ، فصادفت فى طريقك فقيرا ممزق الملابس ، ملوث الثياب ، حافى القدمين ، يرتعد من البرد
أكتب شعورك نحوه .. وما وقع لك معه)

تجلى غيظ فى نظرتى • ما معنى ان يقف أحد ما امامى فى الوقت الذى يسقط فيه حلمى فى حيز التحقيق •

لاينني بابتسامة شاحبة •

ـ ريال على الله !

لهذا وقف أمامى اذن ، حسنـــا ، الامر بسيط ، لاشعوريا مددت يدى الى جيبى • لكن ، لم يكن لى جيب • وفوق ذلك •• ؟ ليس هذا من عادتى أبدا • تمتمت :

ـ من أعطى ريالا أخر الفعل سنة •

وكما يحدث دائما فى مواقف توتر مشابهـة يقفـز امامـــك الاعتراض التقليدى : اذا لم تعط أنت أعطى غيرك • والفكرة الآن ـ كما هو واضح ـ بحاجة الى مناقشة طويلة ، والوقت لا يتسع عليه أن يذهب الى حال سبيله حتى تمد يدك اليها •

لكنه لازال واقفا :

ـ الحسنة بعشر امثالها •

« للحظة فقط ـ يبدو لك انه حتى هنا ، رغم المستوى ، تسقط كل اخلاقية سقراط • ولتحقيق الفعل الاخلاقى يلزم دائما مقابل ، من الافضل أن تكون فائدته أكبر من الفعل نفسه »

ـ لماذا هذا الابتعاد ؟ الحلوة أمامى ، وهذا يقف بيننا ، ويجب ان يذهب :

ـ لقد قلت : من أعطى ريالا أ ••

دون ان أكمل تنحى وذهب • حلوتى لاتزال واقفة • ابتسامتها لاتزال على شفتيها • وعيناها ذائبتان فى عينى • كلا • اخذت

البسمة تذبل • تسقط كورقة شجرة فى خريف(2) • تحل محلها خيبة أمل • اصرار • حدة • غضب ، كبرياء ، وتلوى ـ لحوتى ـ وجهها ثم تذهب • أحس بخيبة ووحدة • يتحول الاحساس الى اتهام ذاتى : أنت الذى أذهبتها ـ لولا تصرفك ما ذهبت انقسم الى قسمين كيف يمكن ذلك ؟ كيف احنق على ذاتى ـ أنا ذاتى ؟ أتشبث بمهرب لقد دفعها الى الذهاب سبب موضوعى ـ خارج عنى تماما ، نعم ، مثلا ؟• اقرب شيء : ابتسمت لبسمتى • وتحولت بسمتها لـ •• ـ وجهى اذن • نظرت فى مرآة ، وجهى ارتد منها عابسا • تلاشت بسمتى • اختفت • ذهبت • أحاول الابتسام • لكن عبثا ، أين ذهبت ؟ أدور بعينى حوالى • اللوحة خالية ، لا أحد بها سواى كلا ، هناك آخر ، هناك يجرى ويلتفت نحوى من خلف كتفه •• انه الشخص الذى وقف بينى وبين حلوتى ..

للتو أدرك أنه سرق البسمة ، بسمتى ..

تركنى بلاهـــا ،

التصرف ـ المواجهة •• يفرضان نفسهما بسرعة • أنطلق تلقائيا جاريا خلفه • أصرخ بأعلى صوتى : توقف ، توقف • لكنه لا يتوقف • بل يضاعف سرعته • يطير طيرانا • كلما جريت نحوه كلما زاد ابتعادا • قوتى اخلت تتلاشى •

أحـاول أن أمنيه ، لعله :

ـ هاك الريال وارجع البسمة •• ها .. ك .. ا .. الر •• يـ .. ا .. ل .. و •• هـ هـ هـ

---

(2) هذا التعبير وجدته جاهزا ، ولم يسبق لى قط أن لمحت ورقة تسقط من شجرة فى خريف

لكنه دوما يجرى ٠٠

ـ هاك كل ما تريد وأرجعها .. ه ه ه ..

دوما يجرى ..

قدرتى على الجرى تنعدم تماما ، أشرع في التوقف ، قبل أن اتوقف ، توقف هو ، التفت نحوى ، صرخ :

ـ أنا رجل ولا اقبل التنازل .. ولو كان ما كان .. أن .. ان ٠٠ ان

« ردد الصدى صوته »

لو قلت كلمة لم احد عنها .. ها .. آ .. ا ٠٠ ا ٠٠

فاتك الغرس قبل مارس .. آرس .. رس .. سس

ودار مواصلاً جريه ٠

انغرس يأس برهشة عين داخل ، شعرت باننى أهوى وأهوى بأن كل الحقائق تفلت من يدى ٠٠ حتى أنا افلت من نفسى ٠٠ بان الحقيقة الوحيدة الثابتة هى السقوط .

سقطت ركبتاى الى الارض ٠٠ وتهاويت

* × *

كان الطفل ذو السنتين يسندنى ، نظرت اليه بعينى المستيقظتين للتو من الغيبوبة .

بـادرنى :

ـ استيقظت .. هه ؟ .. لقد نمت طويلا ..

راعنى تناسق بين وجهه وصوته ٠ فتحت عينى اكثر متاملا٠٠ اكمل كلامه :

ـ لماذا كنت تجرى وراء ابى صارخا •• أعاقل أنت ؟

أجبت بصعوبة ، وجدت نفسى مدفوعا للاجابة ـ أمامه هو الطفل ـ كأن لم يكن هناك أى اختيار آخر ؟

ـ كلا طبعا ..

ـ فلماذا اذن ؟

ـ لقد سرق بسمتى ،

ـ هه ؟ بسمتك ؟ كنت تملك بسمة يوما ما ؟ •• وتقول بدون خجل انه كانت لديك بسمة !! لاشك أنه كانت لديك أشياء أخرى غيرها ••

عيناه الصافيتان تمنعانك من التفكير فى أى شىء :

ـ نعم •• امتلكت يوما بسمة وحلوة •• سرق أبوك البسمة فذهبت الحلوة .. وليس لى اللحظة شىء غير نفسى ..

ـ لديك كل شىء اذن .. قف .. لقد استيقظت • لا تحاول البحث عن أبى • لقد ذهب • وأنت رجل الان • مكانه ، لا تحاول الابتسام وحدك ، أخر بسمتك حتى نبتسم جميعا ••

ـ لماذا نؤخر الابتسام ؟ لنبتسم الآن ••

ـ لا أعرف كيف •• ولا أحد يعرف كيف ••

ـ كيـف ؟

ـ لانك لم تكن حاضرا ابدا •• لانك كنت مستقبلا وماضيا فى حاضر •• لانك كنت غائبا فى حاضر .. لن تستطيع أن تعرف أبـــدا ••

أبعد عنى عينيك ..

دعني أستعيد قدرتي على التفكير ..

دعني أمارسها ..

لقد فقدت كل شيء .

عيناه تزدادان انغراسا ، يا سادتي ماذنبي(3) لا استطيع التفكير تماما في أي شيء .

بصعوبة اتمكن من الرد :

ـ كلا .. لقد كنت حاضرا ابدا .. هو الذي كان غائبا .

ـ أعرف ذلك .. وحتى أنت

على أي لا تهتم بالامر .. ليس هذا بذي جدوى .. المهم هو انك حاضر .. احسست كأنني اعترفت له بالحق في سؤالي كما يجب، الشيء الذي لم يكن على أن أعمله . وكأنني لست انا نفسي . لكن سرورا طغى على : لقد وجدت اخيرا من يفهمني . وجدت أرضا ثابتة أقف عليها .

ـ أنا حاضر أبدا .. والذي يؤلمني هو أن حضوري كعدمه .

ـ يلزمك الالتمام ..

ـ أعرف ماذا يلزمني . سئمت كل النصائح . أريد أن أعرف كيـــف .

ـ لا أستطيع أن أريك شيئا . يجب أن تعرف أنت . لاتوجد معرفة مجردة . المعرفة تفرض نفسها في ظروف الفعل . وفي الفعل نفسه .

---

(3) تساؤل غير مطروح للرد ولا للمناقشة ، لانني غير مستعد ، ولانه قبل ذلك انما يعبر عن حالةانفعالية معينة .

ـ الالتمام ، نحن ممنوعون منه دائما . هناك دائما فاصل : عصا مرفوعة .

ـ بدل نظرتك : الثعبان ياكل ذيله(4) بينما يقف الآخــر منفرجا مصفقا .

ـ هذا حق ..

ـ ويجب ان يعلم الثعبان انه ياكل ذيله ..

ـ لا يوجد التمام تلقائى ..

ـ وفاشل من البدء التمام « بمصكوكات » جاهزة .

ـ كل ظرف يفرض حلا خاصا .

ـ نعــم ..

ـ نعم .. « فكرة تعن لى فجاة » :

ـ أبوك هو سبب كل شىء .. كان ممكنا أن نبتسم مــن زمــــن ..

ـ لا تتهم أبى هكذا .. ببساطة .. لم يكن يعرف شيئا ..

ـ ومن نتهم اذن ؟ .

ـ لا تسأل هذا السؤال لان كل شىء واضح .. والذى سيكون مسؤولا .. متهما بالفعل هو أنت .. أنت تعرف كل شىء..

ـ * ـ

---

(4) كتاكيد : فى الايام الاخيرة ذهب ابن عمك العاطل اليهم بحثا عن عمل . فناولوه اياها وقالوا له احملها . ولما اعترض قالوا : لاشىء لدينا غير هذه . احملها اذا اردت ألا تبقى عاطلا .

صمتنا واخذ كل منا يفكر لوحده • الشعور الخفي بالمرارة اختفى • وحل محله ادراك وأمل عميقان عريضان :

« الحاضر أهم لحظة .. ومنه سيكون الانطلاق » •

— * —

حسنا يا سادتي • كل شيء واضح الآن ، وعما قريب سنبتسم

الدار البيضاء   مصطفى الادريسي المسناوي

دقيقة بطولة

(اقصوصة)

••• مرة أخرى ، طرح على نفسه ، سؤاله الاكبر : ماذا سيختار ؟ نفسه أم الآخرين ؟ وحاول بتفكيره المتواضع ـ الذي يصفه أحيانا بأنه وضيع ـ أن يبحث فيه من جديد • لقد كان يعلم أن الآخرين موجودون بالفعل ، والا لكان سؤاله الاكبر عبثا ، وكان يعرف أيضا أن وجوده الخاص ، أمر لا يمكن نكرانه أبدا • ووجد نفسه يقف فى الطريق فجأة ، وبدون مقدمات •• ان الآخرين يسيرون وانه ليبدو ، فى الظاهر على الاقل ، أنهم يسيرون من أجل شيء ما ، أو الى هدف ما يجعل من سيرهم سلوكا مبررا : الى العمل ، الى المكتب ، الى السوق ، الى البحر ، الى المقهى ، باختصار ـ الى مكان ما ـ يقفون عنده أو يتجاوزونه ، ان ارادوا ، الى مكان آخر •• لماذا وقف اذن ؟ لقد وقف ليسأل نفسه لماذا كان يسير ؟ والى أين ؟ •• أيسير الى نفسه أم الى الآخرين ؟ هكذا عاوده السؤال لمرة ربما تجاوزت الالف ، يطلب منه هذه المرة جوابا مباشرا • بدون لف ولا دوران •

وقطب حاجبيه ، وزم بأنه كرجل ذى بال ، وتابع سيره مصمما هذا اليوم أن يجيب عنه اجابة نهائية ، تنقذه من عذاب الفوضى وتنقله الى راحة النظام واليقين • كان يشعر شعورا حادا بالوحدة ، وفى نفس الوقت كان متيقنا من أنه ليس الوحيد الذى

يسير في الطريق ، كان الطريق عاما ، واسعا ، حياديا . كل يمشي فيه على هواه ، الفقراء والوزراء · وكانت لفظة (عام) تشعره ، رغم أنفه ، أنه جزء من شيء عام هو الطريق بكل ما فيه ، وأن سيره جزء من شيء عام هو السير في هذا الطريق كيفما كان نوعه · وكانت لفظة (واسع) تشعره بالضيق ، وأما لفظة (حيادي) فكانت تبعث في نفسه شعورا بالغيظ لا يدري كنهه ، فحاول أن يغير الالفاظ وينعت الطريق بأوصاف أخرى ، فأدرك أن هذا عمل لا نهاية له ·· ومن أجل أن ينقطع عن تفكيره ، أو على الاقل هذا النوع من التفكير ، تابع سيره وهو يركز نظره ، بكل عضلاته ، على الاشياء التي يحتويها الطريق كأنما يريد أن يكون معها علاقات شخصية ، قوية ، تفصله عن علاقته بنفسه ·· تقريبا نجح في ذلك ·· تقريبا مائة خطوة ·· وكل خطوة كانت تدشن علاقة جديدة ، خصبة ، مع الاشياء ، والناس ، والسيارات ·· ولكنه ، للاسف ، شعـــر بأنه يفتعل ذلك ·· فاذا بكل تلك العلاقات الحميمة التي كونها ، تتمزق مرة واحدة ·· فيحل محلها سؤاله الاكبر بكل ثقله وغثيانه ·· ورفع عينيه الى السماء الرمادية ، فراى جماعة من الغربان تطير في هدوء وانسجام ، فقال في نفسه : لو أنني كنت غرابا · لقد كان سبب هذه الامنية المتواضعة ، الشاذة ، شعوره بالعزلة ، ولم لا ؟·· بلا أهل ، أو قل هي أسرة شاحبة ممزقة الاسمال يزداد عددها كل سنة دون أمل في القناعة ·· بلا نساء ، أو قل هن نساء للبيـــع والشراء ما عدن يشرن فيه أي احساس ·· بلا اصدقاء ، أو قل هم ثعالب يتحينون به الفرص ·· بلا ماض ، أو هو ماض لا هوية له·· بلا اسم ، أو هو كلمة لا تعني أي شيء ·· بلا ذنوب ، أواه ، بلا ذنوب ، كيف كان ـ حتى الآن ، كالخروف بلا ذنوب ؟ ·· « هل اصبحت مجنونا ؟ كلا ، ان الحقيقة هي المجنونة ! » ·· نفسي أم الآخرين ؟ ·· أليس سؤالي نفسه مفتعلا ؟ ·· لقد كان كثير الاسئلة ، أما قدرته على الاجابة فكانت باهتة كلون وجهه · ولماذا كان تفكيري ضعيفا ؟ بل وضيعا ؟ واردف بعنف عقلاني : لماذا ؟

لماذا ؟ .. وأجاب معتقدا فى اجابته الاخلاص والوضوح : ان تفكيرى كذلك لان جيبى فارغ .. ولكنه ، فزع توا من اجابته ، واعتراه الخجل من نفسه ، عندما تذكر أن هناك ناسا كثيرين كانت جيوبهم فارغة وعقولهم مليئة ..

واحس بصفعات قاسية على رأسه ، وكأنها استجابة لما كان يستحقه هذا الرأس الضعيف من جزاء .. فرفع رأسه الى فوق ، فنزلت الصفعات على عينيه الغائرتين ، وعلى جبهته الواسعة التى تخفى وراءها كثيرا من الاضطراب والعذاب .. وعلى منقاره ــ لقد كان يتمنى أن يكون غرابا ــ الذى يشكل زاوية هندسية حزينة تنبت فى وجهه .. صفعات مائية ، باردة ، شفافة ، قاسية ..

واذن ، فانه سيتوقف عن السير .. سيختبىء ..

وارتاح قليلا ، وهو تحت سقيفة المحطة ، الى نفسه ، لم يكن هو وحده الجبان . لقد هرب الآخرون كلهم ، واختبأوا تحت السقيفة ، وأصبحوا كلا واحدا هاربا وجبانا .. وبدت له الطريق وكأنها فقدت وظيفتها الاساسية كطريق للسير .. السيارات وحدها كانت تسير .. حاول أن يتأمل ، عن بعد ، ما يوجد داخل هذه السيارات لكن البخار المكثف على الزجاج كان يحصنها بمناعة .. وانتظر الهاربون تحت السقيفة أن تنقطع السماء عن الصفعات رحمة بهم ، غير أن وجومها كان ينذر بالمزيد .. لعلها غاضبة ، يخاف من الماء .. والسماء فى بلاد أخرى تمطر رصاصا والناس يسيرون تحتها فى ثبات .. وأردف متهكما على نفسه : أنا جبان اذن أنا موجود . أجل ، انه موجود حقا ، وهو يشعر الان بوجوده داخل كتلة موجودة ، كتلة من الناس ، من الآخرين ، من الرجال والنساء والاطفال ، من الموظفين وما سحى الاحذية والمتسولين .. وكانت هذه الكتلة مفصولة عن السماء

بسقيفة عريضة حديدية تتكسر فوقها صفحات الماء عبثا ·· نفسه أم الآخرين الساعة على الاقل ، كان هذا السؤال لا معنى له ، كان وجوده الخاص أيضا لامعنى له ، كان المعنى الوحيد للحياة كلها فى هذه اللحظة ، أن هذه الحياة تخلو من البطولة ، ولم تكن شجاعة السيارات لتشذ عن هذه القاعدة قط ، بل تؤكدها ·· لم تكن هذه السيارات الحديدية شيئا مهما وباعثا للامل فى نظره ·· فرغم وجودها تبدو الطريق فارغة ·· لماذا هى فارغة ؟ ·· انها لم توجد من اجل أن تكون فارغة ·· وان المطر لم يوجد ليمنع عنها وظيفتها ·· بالعكس انه يطهرها · وحتى لو كان الشوك وليس المطر وجب أن يقتلع منها لتؤدى وظيفتها ·· لقد كان هذا فى نظره واضحا للجميع وضوح الشمس ·· ولكن أين هى الشمس الآن ؟ ··

لم يعد ينتظر أن ينقطع المطر ، وانما أن يخرج شخص من هذه الكتلة ، ويسير فى الطريق ، ليوضح للآخرين ـ عفوا ، لاجزائه الاخرى ـ أنه لا داعى للخوف من السير فى المطر ·· ولكن أحدا لم يخرج ·· لم يكن يبدو على وجوههم أى خوف فلقد كانوا محتمين بالسقيفة التى فوقهم كأنها جناح ابليس يحميهم من غضب الاله ·· وقفز فجأة من خياله العقيم ـ على حد تعبيره ـ الى الشعور مرة أخرى بوجوده الخاص ·· قبل أن يهطل المطر كان يسير وحيدا يبحث عن جواب يربطه بالآخرين نهائيا أو يفصله عنهم ·· فلماذا لايخرج الآن من هذه الكتلة ويتابع سيره ، ليوضح لهم ما يجب ان يعملوا ، وأن الامر بسيط جدا ·· ولكن سيره الى أين ؟ ··

فجأة ، وبدون تردد ولا تفكير ولا أى شىء ، قفز من تحت السقيفة واخذ يسير ويداه فى جيبى سرواله ، ·· خمسون خطوة بالضبط ·· ستون ·· سبعون ... ثم التفت اليهم ·· كان ذلك مضحكا حقا ·· لماذا هم واقفون هؤلاء الناس ؟ ان الامطار تهطل عليه الآن بشدة ·· وكان هو عنيدا بشدة ·· فلم يكن يجرى قط

.. بل كان يسير في بطء .. بل في بطء شديد .. وقد امتنع عن التفكير ـ يكفي ما فكر حتى الآن ، وهل سيظل يفكر دائما والى الأبد ؟ ـ .. عن اى شيء ماغدا السير .. عن أي شيء الا ما يبدو له أنه بطولة .. بطولة .. بطولة ! وضحك هذه المرة على نفسه ، لانه وهو يتابع سيره تحاول عن تواضع بطولى أن يعطى تعريفا ولو مؤقتا للبطولة ـ لقد عاوده التفكير ـ فوجد نفسه مضطرا الى القول بأن البطولة هي أن يسير المرء تحت المطر ! وضحك مرة ثانية ، ضحكة تخفى في طيها شعوراحادا بالبكاء .. ثم أخذ يجرى .. يجرى .. عائدا نحو السقيفة ، وهو لا يستطيع أن يكتم ضحكاته العصبية المتشنجة ، وعندما وصل ، وجد كثيرا من الناس ينظرون اليه وهم يضحكون !..

سلا : 23 ـ 11 ـ 69

احمد ابو الورد .

أبو يوسف طه

المدينة وسقوط الحقل

الصومعة

مرمية فوق السرير ، نصفها مكشوف تتعاقد فوقه همهسات لثة شبقة ، الستائر والمرايا ·· المصباح ينفث خدرا أحمر اللون فاغما ، اشياء الفرجة مبهمة تبدو منعكسة في مرآة الدولاب ·· يتحرك (س) في دوائر من فراغ داكن ، يمزق جفاف الصمت · تتململ المرأة وبغير وعي تلمس حافة الغطاء البرتقالي فتجذبه حول جسدها النحاسي الاملس · يزفر (س) وبآلية يغادر الغرفة الى حديقة الدارة مدفوعا بيقظة نومية ·· كثور أسقط للذبح أنفاسه تتلاحق عنيفة ومتزاحمة ··

في اليوم الفائت اخذ دوشا دافئا ورجل شعره ·· ربطة العنق المزركشة ، عواصف العطر ثم ·· خطب في مدينة الجماجم (!) عادة مغزولة ببراعة لاقناع الميليشيا النزارية برشاقة وجمال المظهر ·· هوت قبضته على الطاولة الابنوسية الفاخرة ، وتمزقت اخر فقرة من الخطاب في ارجاء الغرفة ·· « يجب أن تتعاون المدينة لقتل الغول! » ثم سحب بالملقاط كومة ثلج اسقطها في قاع الكأس وصب مقدار جرعتين من خمر رفيع · وفتح عينين متورمتين قبالة المرآة ثم زفر وبدأ يتلهى بمسح البخار من السطح الزجاجي · قال الرجل لزميله المنهمك في تصفح كتاب قديم :

ـ انهم يستفيدون من الحلقة

ورد الرجل بعدما طوى الكتاب وضغط على قنطرة نظارته ذات الاطار الابيض :

ـ أتقصد أنهم يشمئزون ؟!

هز زميله رأسه علامة الايجاب ثم دفع الى منخريه كمية من الشاق وشرع يعطس .. وكان الحاوى قد طير فى الهواء حجرا صغيرا فارتفعت عيون المتحلقين الى اعلى فيما أخرج من تحت برنسه الحائل اللون المتآكل حمامة . لم يروه بالتأكيد ، فانفغرت افواههم من فرط الدهشة ! علق صاحب الكتاب القديم :

ـ لكى يصطادوك يضعون دائما طعما فى الشص وفق طريقهم !

الميزان الذى فى حجم السماء ، المعلق فوق المدينة يختل فتموت حركة النهار ليولد التذمر ، البضائع تسرق بالجملة ويحلب الجوع الناس فتنمو زوبعة من التوتر ، ويقام فى العراء سوق فيه تائهون يحملون رؤوسهم التى تقطر بالدماء الى منصات القصابين ، ويفزع العديدون فالعاصفة تتأهب لتأتى على ما تبقى من المدينة ، البراز بجانب حيطان المتآكلة المتحززة ومستنقعات الوحل ، اعمدة الانارة تبعث ضوءا خافتا متقيحا ، زعيق أبواق السيارات والناس يتقافزون كدمى مطاطية بينما السائحون تتدلى من اعناقهم الات تصوير بلهاء، يجمعون بها ذكرياتهم عن متحف الهياكل العظمية التى تمشى (!) وآكلى اظلاف الصبير وشاربى الماء الغليان وفتيات الرصيف ذوات الوجوه المرشوشة بحب الشباب ، اللائى يحملن قوارب جلدية يتكوم الوسخ الاصفر فوق رؤوس زغبها .. العفونة تزهر فى واجهات المتاجر والناس يموتون تحت ظلال الجدران الرطبة .. ويذوب الرجل

الجالس تحت قوس الزقاق الضيق ضحكة في اذن الشارع ، ورجلاه الوسختان الممدودتان كغشاءتين وقد رمى بعقب سيكارة محشوة بالحشيش ويقرر أن من الغابة المجاورة للمدينة حيث تكثر اشجار البلوط خرج هؤلاء حيوانات ترتدى الالبسة ‥ رجل يحمل فوق كتفيه رأس ثعلب يلبس معطفا وربطة عنق يخاصر فتاة تحمل رأس ابن آوى تبرز ذنبها من تحت الميني جوب وذاك الذي يضع فوق جمجمته قبعة تبنية تنتهي قوائمه بحدوتى حصان ‥ ويضحك الرجل ملء الروح ، ويصيح كهل في وجهه رضوض لم تجف بعد :

ـ هذه آثار الكلبشات والكماشات والملاقط ، لقد كنت مسمارا في آلة لصناعة السكر فلما صدئت القوا بي الى الخردة الموجودة في كتف المدينة !

‥ وتمشى المدينة مقلوبة ، الارجل فوق والرؤوس تحت وعظام لازالت تحمل بقايا لحوم ملقاة في التواء الازقة ‥ تجف حركة الناس وتعم العتمة ٠

يزفر (س) وبآلية يغادر الغرفة الى حديقة الدارة مدفوعا بيقظة نومية تاركا المرأة مرمية في السرير ‥ كثور اسقط للذبح أنفاسه تتلاحق عنيفة ومتزاحمة وكانت جلجلة الرعد والتماع البرق ورنات الاسلاك الكهربائية ، ويتخطى (س) الحواجز والاسوار ليأكل الاطفال واحلام الكبار ‥ يسرق الضوء من القناديل الزيتية وتعوء العاصمة تتهاوى الجدران كالورق ويدوى اصطفاء النوافذ والمدينة نائمة غير نائمة ! ‥ الدم تخثر على شفاهه ، حينما فاقت المدينة لم تجد بصمات ولاقطعة ثوب حريرية ولا بأس لانه لم يتبرز كالرجل لهذا لم تعرف وفي الصباح بكى الجميع وتوعدوا ‥ الاحراء خاوية والبساتين ! قال الصغير الذي ذاب عرقا من فرط الجرى :

ـ انني رأيت شبحا بشعر غزير وانياب حادة يأكل حبة من الضوء واية من القرآن ٠ ويعجن الكبار داخل كهوف افواههم صخب الضحك

من احجيته الصغير ، ويختلفون في كل شيء ، بل يتفقون في وجوب استدعاء سيارة الاسعاف لنقله الى مشفى المجاذيب ! يضربون خط الرمل ويعلقون الرقيات ويقرأون اللطيف ويهمهمون كسحرة ٠

٠٠ من فوق المكتب الفاخر ـ وفي اليوم التالي بالتحديد ـ يقول (س) بعينين دامعتيـــن :

ـ الغول يجب أن يموت وأن أتقدم الصفوف !

ويغزلون ضحكة الانتصار لمليون مرة ويزول التوتر فالاعصاب دخلت الثلاجة ٠ في الليل الاخر كانت المدينة تتهدم والزوابع تزفر بعمق فخرج الناس يصرخون ما وسعهم الصراخ ، يحملون الفؤوس والسكاكين ، فالفجر شرع ينضو عنه حزن الليل ، لكنهم لم يجدوا احدا ، بل وجدوا فردة حذاء (س) !

٠٠ وحينما عم الشروق (لم يعم) كان (س) يتململ بجانب جسد في لون النحاس وقد هده الانهاك وطول السهر ، كان ملطخا بالغبار والاوحال والدماء ، لكن الذين كانوا يحملون بين اياديهم رؤوسهم لدفعها الى المزاد انهمكوا في تركيب الميكروفونات واستدعاء الصحافيين لان (س) يريد مخاطبة سكان المدينة قائلا :

ـ الغول يجب أن يموت وأنا أتقدم الصفوف ٠!

محمد ابراهيم بوعلـو

المحامي

(القصـة)

الاكلة الشهية التي اوصى زوجته بتهييئها بالتليفون قبل ان يلتحق بالمحكمة تنتظره . وزوجته الآن قلقة لان الاكلة ما تلبث ان تبرد ، وبالتالي تفقد مذاقها الذي عودته اياه . ولكن قلقها لم يطل كثيرا ، فبمجرد ان انتهت من اصلاح زينتها لملاقاة زوجها حتى كان هذا الاخير يدخل الدار .

لم يكن كعادته . لاحظت ذلك من اول وهلة ، فكلماته المرحة التي عودها بها منذ ان تطأ قدماه البيت لم يفه بها لحد الآن . وعندما تخفف من بعض ثيابه وحذائه ، جلس على اريكته . وكانت تنتظر منه ان ينشر بين يديه جريدته ، ولكنه لم يفعل ، فقد كان شارد الذهن بعض الشيء. لذا اهتمت بمائدتها تضيف اليهـا مـا ينقصها .

كان يتابع حركاتها بعينيه ، من غير ان يفكر فيها بالضبط. فعندما اشارت اليه بأن يقترب من المائدة كان ما يزال يحملق فيها بنظرات فارغة .

عندما جلسنا للاكل ، كانت قد عقدت العزم على أن تساله عما به ٠ ولكنها كعادتها تفضل ان يأكل اولا ، حتى اذا ما امتلأ بطنه ، واستراح قليلا مما يشغل باله ، سيكون فى احسن الاحوال لسماع اسئلتها والاجابة عنها ٠ ولكنها لاحظت انه لم يلاحظ الاكلة الشهية التى اوصى بها ، ولم يتناول منها شيئا ٠ لذا تسارعت عدة اسئلة الى ذهنها ، سرعـان ان اخذت ترتبها من حيـث الاهمية اولا ، ثم ما لبثت ان اختارت لها ترتيبا آخر يعتمـد فى اساسه عـلى استدراجه ، وبدلا من أن تساله كما تفعـل الزوجـات عـادة :

« ماذا بك ؟ » كانت تساله :

ـ الم يعجبك الاكل ؟

ـ لا ٠٠ لم أذقه بعد ٠

ـ لاشك ان رائحته تملأ خياشمك كالعادة ٠

وتم لها ما ارادت ، فقد انطلق يحدثها عما يشغل باله :

« كنت متيقنا من أنه سيأتى اليوم الذى سأسأم فيه حياتنا ٠ وطريقة عيشتنا ولكننى لم أكن أتصور أنه سيتم ذلك فى وقت قريب جـدا » ٠

وكان يمكن لزوجة غيرها ان تفكر فى انه اخذ يسام حياتهما الزوجية ، ولكنها هى تعرف زوجها حق المعرفة ٠ وكانت تدرك انه يتحدث عن أمور أخرى لا تتعلق بهما ٠ ولذا عليـها ان تحتفـظ باتزانها الى ان تطلع على ذلك من غير ان تزعجه بشىء ٠ واردف هو قائلا :

« لا ادرى اذا كان فى الامكان ، بعد اليوم ان اطلب منك اكلة شهية مثل التى طلبت منك صباح اليوم ٠٠ والا فساكون قد قتلت

فى نفسى كل القيم الانسانية المتعارفة • حتى استطيع التغلب على ما أشعر به من قرف وانا اجلس على مائدة مثل التى أمامنا ٠٠ »

وفكرت الزوجة فى عامل النسيان ٠٠ ولذا لم تحرجه بأى سؤال حتى لا يتخذ قرارا حاسما يندمان عليه فيما بعد • فهى تعرف طبعه فى قراراته الحاسمة ، ولذا تركته يتخيل نفسه انه يحدثها عن احاسيس طارئة ، اذ ما دخل القيم الانسانية فى شهية مثل شهية الاكل ٠٠؟! وسمعته يقول :

« ان المرء ليحتاج الى ان يدفن نفسه فى القـذورات حتى يستطيع أن يغتصب هؤلاء المساكين ٠٠ كيف يستطيع المرء ان ينعم براحة البال وهو يسرق هاته الجموع الفقيرة ٠٠ لا ٠٠ لابد وان تكون قيم الانسانية ماتت فى نفسه الى الابد ٠٠ وما قيمة انسان لا قيم له ٠٠ »

ورفعت الزوجة رأسها تنظر اليه ٠٠ ولاول مرة لاحظت ان وجه زوجها يعلوه اصفرار واضح ٠٠ ولاول مرة لم تحتفظ بهدوئها• ولاول مرة تتجرد عن سياستها ، وتصبح كباقى الزوجات وتسأله من غير دوران :

« ماذا بك ٠٠؟ ماذا حصل ٠٠؟! »

وبدلا من ان يظل يحدثها عن افكار مجردة انطلق يحدثهـا عن تجربته التى عاشها هذا اليوم ، وهو يعتقد انها ليست فريدة ، ولن تكون الاولى والاخيرة ، ولكنها كانت كافية لتزيح عن عينيـه غشاوة احتفظ بها من تلقاء نفسه ، لانه كان يعتقد أن على المرء أن يعيش فى راحة بال لفترة من الزمن قبل ان يصادف فى حياته ما يزحزح هذه الغشاوة ويطير براحة البال • ولكـن تقديره لهـذه الفترة الزمنية لم يكن قصيرا بل اطول قليلا مما كان يقدر •

وحدثها بكل اختصار : « لقد حضرت الى مكتبي منذ مدة أسرة فقيرة تطلب مني ان ادافع عن ابنها السجين الذى قام بسرقة . وقبلت الدفاع عنه بمبلغ اربعمائة درهم ، ولم افكر بتاتا من اين يمكن للاسرة الحصول على هذا المبلغ ، فلقد كنت أبعد عني التفكير في الجانب الانساني حتى لا اقفل مكتبي بعد ان اصبح مفلسا . ولكني بعد اتصالي بالابن السجين ، لم افلح في اقناعه بمهمتي في اطلاق سراحه . واصر هو على أن يعترف بسرقته ، ورفض بتاتا التعامل معي . مما جعلني ارى انني لا استحق ثمن اتعابي . ولكنني مع ذلك فكرت في محاولة التخفيف من مدة السجن التي يمكن ان تقضي بها المحكمة . وفي نيتي ان ابذل كل ما في وسعي من اجل ذلك . غير انه لما دخلنا المحكمة عقدت الدهشة فمي . فقد انطلق الشاب يدافع عن نفسه لا من أجل طلاق سراحه ، ولكن من أجل حبسه اكثر ما يمكن من الاعوام » .

واندهشت زوجته وهي تسأله :

« ماذا ؟! »

ــ واجابها وهو يحرك راسه : « لقد اصبحت انا المتهم . واصبح هو المحامي .

كأنت كلماته تجلجل في قاعة المحكمة ، ولم يستطع اى كان ان يمنعه ، فلم يكن ليعترف بأى من تقاليد المحكمة . لقد اعترف لهم بأنه قام بسرقة لا يتجاوز مقدارها عشرة دراهم ، وفي استطاعته ان يفعل ذلك كل يوم عندما يطلق سراحه » .

وقالت الزوجة :

« هذا مجنون .. ! »

واجاب الزوج : « انه في اتم قواه العقلية مثلك ومثلي .. فهو قد اخذ يبرر اقواله قائلا : عليكم ايها القضاة الا تكتفوا بالحكم

على .. ففي بلدنا مهمتكم شاقة وعسيرة اذ عليكم ان تحاكموا العدد العديد من اللصوص من اعلى المستويات حتى اسفلها ، واذا قمت انا بسرقة بسيطة مثل هذه ، فما ذلك الا لاني لم استطع ان اجد عملا ، كما لم اجد من قبل مقعدا في المدرسة . واني اطلب منكم الا تحرموني من مكان داخل السجن ، فرجائي الا اصاب بخيبة امل حتى في السجن .. اذ على الاقل ستعملون على ان اريح نفسي من البحث عمن اسرقه . فالذين استطيع سرقتهم هم اناس فقراء مثلي ، ومن الظلم ان اسرقهم . اما اللصوص الكبار فليس في الامكان سرقتهم بسهولة . فالحكم على اكثر ما يمكن من الاعوام يوفر على الشعور بالذنب . انا لا ابحث الا عن مكان اخفي فيه نفسي عما يجري في بلدنا . واخفي فيه نفسي عن اسرتي التي لم استطع ان اقدم لها اى شيء سوى العار .. لا تسمعوا لاقوال المحامي .. فهو يسعى لانه يبرر سرقاته . فاذا قمت انا بسرقة ما قيمته عشرة دراهم فهو قد اخذ من اسرتي اربعمائة درهم، لا ادرى كيف استطاعت الحصول عليها .. ايها القضاة . لقد قال لي المحامي ان مدة سجني يمكن ان تتراوح بين سنة وخمسة اعوام، وأنا أطالب بخمسة اعوام بدل السنة التي تراعي فيها الظروف المخففة . حتى اخفف عن المحامي سرقاته ما دمت سأعود الى عملي مرة أخرى ، وحتي لا تعود اسرتي تثقل كاهلها بثمن اتعابه . ايها القضاة مهمتكم شاقة وعسيرة . وعليكم ان تدخلوا السجون اكثر ما يمكن من الابرياء راحة لكم ولهم ، اما اللصوص الحقيقيون فسيظلون أبرياء .. »

وصمت الزوج وهو ينظر الى زوجته التي قامت ترفع الصحون عن المائدة . واوقفتها كلماته : « لقد ضجت المحكمة . وبدا على القضاة الاضطراب . ثم قال لي رئيس المحكمة : « ماذا تقول ؟ » فأجبته بحزن : « لقد استمعتم الى الدفاع .. وعليكم ان تقولوا كلمتكم .. »

وابتعدت الزوجة الى المطبخ وعندما عادت سألت زوجها وهى تحمل الطبق الشهي : « وما هى المدة التى حكموا بها عليه ؟ »

ـ « خمسةاعوام •• »

وقام المحامى عن مقعده وهو يقول لنفسه : « يحتاج المرء فى بلدنا الى ان يقتل فى نفســه كل القيـم الانسانية ليأكــل اكلة شهية ••» •

تنبيه

ترجو المجلة من المؤلفين والناشرين والمكتبات أن يوافـوها بالجديد من انتاجهم ، لتعمل على الاعلان عنه والتعريف به كما ستتناول بعض الكتب الهامة بالدراسة والتحليل •